محمد أمين الميداني

القعقاع بن عمرو رضي الله عنه

فارس بني تميم

مؤسسة الرسالة

محمد أمين الميداني



مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح والدي الذي علمني معنى الصدق والمثابرة والصبر ..

والذي غرس في نفسي حب هذه الأمة العظيمة التي أنتسب إليها،

وحب الأرض التي احتضنتني حين دبوت عليها.

إلى روحه الطاهرة أهدي هذا الكتاب.

أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

لم يحظ القعقاع بن عمرو ، فارس بني تميم ، من قبل باهتمام الباحثين والدارسين بما يتناسب مع مكانته في تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، ولم يرد ذكره إلا في سياق التأريخ لحروب تلك الأمـــة ومعاركها وفتوحاتها في صدر الإسلام ...

وقد رأيت أن اغفال ذكر القعقاع والترجمة لحياتـــه بما يتناسب والدور البطولي العظيم والمشرف الذي لعبـه في تاريخ حروبنا ومعاركنا وفتوحاتنا الإسلامية الأولى ، هو نقص يجب تداركه وتلافيه ، ليكتمل لنا التأريخ لأبطال هذه الأمة وفرسانها الذين لعبوا دوراً كبـــيراً في النصف الأول من القرن الأول للهجرة النبوة الشريفة .

ومن الغريب أننا لم نعثر على ذكر لحياة القعقاع قبل إسلامه ، ولا على ذكر لحيـــاته الخاصة ، ولم يحدثنا المؤرخون إلا عن اشتراكه في فتوحات المسلمين وانتصاراتهم في صدر الإسلام .

ولذلك سيلمس القارىء الكريم من خـــلال مطالعته لصفحات هذا الكتاب ، أن التأريخ لحياة القعقاع هو تأريخ حربي في المقام الأول .

فمن خلال فتوحات المسلمين في العراق والشام — في عهدي أبي بكر

الصديق وعمر بن الخطـاب ، والحوادث التي تلاحقت بعـد ذلك ، في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب – سنتابع حياة هذا الفارس وشجاعته وبطولته ومواقفه الكريمة والمشرفة .

على أن دور القعقاع لم يقف عند حد الاشتراك في المعارك والفتوحات فقط ، بل تجاوز ذلك إلى الاشتراك في الأحداث الكبيرة والمواقف العصيبة التي وقعت في النصف الأول من القرن الأول للهجرة ، والتي شكلت في كثير من الأحيان منعطفات خطيرة في مسيرة أمتنا واشادة أبنائهـا لمجدها وحضارتها .

وقد عمدت إلى بعض الروايات التاريخية التي صورت هذه الأحداث والمواقف ، فضمنتها فصول هذا الكتاب ، ليتاح للقارىء الكريم أخذ صورة واضحة عنها ويطلع من خلالها على أثر القعقاع فيها ، وما ساهم به لدرء شر الفتن والخلافات .

وأخيراً ، لئن أخذت على نفسي وضع هذا المؤلف المتواضع ، راجياً معه أن أكون قد أديت جزءاً صغيراً من ديني تجاه أمتي ، فأنا أتمنى أن أكون قد نجحت في رسم صورة واضحة تليق بالقعقاع بن عمرو ..

والله الموفق

المؤلف

دمشق : ١٩٧٨/٥/٨ م

الفصل الاول

لم يحفظ التاريخ للقعقاع بن عمرو ، ذكراً قبل اسلامه ، فلم يعرف متى ولد ، ولا أين نشأ ، ولا في أي الملاعب درج ..

وكأنّ إسلام القعقاع كان هو بدايـة حياتـه التي حفلت بالبطولات والمآثر ، وزخرت بالأشعار التي كان يرتجزها في ساحات المعارك ، وعند انتصار المسلمين على أعدائهم .

وحين نعرف بأن حياة القعقاع بدأت عند إسلامه ، وأنهـا تتابعت بعد ذلك تسطر في كتب التاريخ شجاعة صاحبها وقوة إيمانه ، وصبره عند الشدائد ، للمسنا كيف انتقل الدين الإسلامي الحنيف بأولئك الذين آمنوا به ، وبرسوله وبما جاء به من عند ربـه ، كيف انتقل بهم من حياة خاملة الذكر ، مشتتة الجهد ، فارغة المعنى ، إلى حياة كلها مفاخر وانتصارات ومآثر ، وما كان ذلك ليتم لو لم تطمئن نفوس المسلمين لدين ربهم ، ويعمر الإيمان قلوبهم ، وتسمو أرواحهم فوق مفاتن هذه الدنيـا وغرورها ، فكان أن صنعوا بفكرهم وإيمانهم وجهادهم حضارة عظيمة ، لم يخب نورها على تعاقب القرون ، ولن يخبو حتى ولو حجبتها سحب الضلالة والجهل والغرور ، التي كانت تتلبد بهـا سماء تلك الحضارة في عصور متباعدة من تاريخنا العظيم .

متى ولد القعقاع ، وأين نشأ ، ومـــا كان حاله قبل أن يشرح الله عز وجل قلبه للايمان ؟!!

كل هذا نجهله كجهل من دونوا لنا تاريخ أمتنــا العظيمة ، وسجلوا مراحل انتقالها من ضيق الظلمة ، إلى رحبة النور ، من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام .

ولكن يبقى السؤال : أيعقل أن يخلق الايمان في نفس صاحبه شخصية جديدة بكل مقوماتها وصفاتها البدنية والمعنوية والفكرية ، وقد كانت من قبل شخصية مهلهلة ضعيفة خاملة الذكر ؟!!

أقول إن الإيمان الذي ملأ قلب القعقاع ، والهدى الذي فتح بصيرته وألهمه عظيم أعماله ، وبث فيه من أسباب القوة والمنعة مـــا جعله من أشجع فرسان العرب ، وأبعدهم ذكراً ، وأكثرهم مآثراً ، هذا الإيمان وذلك الهدى ، لو لم يلقيـــا في شخص صاحبهما تلك النفس الطموحة ، والشجاعة الملموسة ، وأسباب القوة والمنعة لما كانا خلقا لنا شخصية متميزة كشخصية القعقاع ..

ولو أردنا أن نعود بمخيلتنا إلى الوراء ، إلى قبل إسلام القعقـاع ، لنصور حياته في الجاهلية ، لتخيلناه فتى شجاعاً من فتيـان العرب ، له ما لأصحابه الفتيان الشجعان من قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، والصبر عند الشدائد . فتى نشأ في تلك الأرض التي ملأتهـا الرمال الممتدة على طول الأفق ، فاكتسب من ذراتها تلك الصلابة التي لا تلين ، والقوة التي لا ضعف فيها .. فتى يجول ببصره في تلك السماء المزينة بالنجوم ، المضاءة بالقمر ، فيضنيه الشوق ، ويهزه الحنين ، فتعتلج نفسه بالمشاعر والأحاسيس ، ويترجمها لسانه بأشعار جذلة رقيقة ، تضيع كلماتهـــا مع مهب الريح .. فتى عرف معنى الإنتساب إلى قبيلة نشأ فيها وعاش بين أفرادها ، قبيلة تحيمه وتدافع عنه ، حتى يشتد ساعده وتقوى بنيته ليصبح من فتيانهـا

الشجعان الذين يذودون عن حياضها، ويدفعون شر المعتدين عن حماها..

لعل القعقاع كان هذا الفتى في الجاهليـــة، ولعله كان على صورة أعظم من الصورة التي رسمناها، وحاولنا فيها أن نكون قريبين قدر الإمكان من الحقيقة ... من حقيقة هـذا الفارس الذي لعب دوراً عظيمـاً في تاريخ فتوحاتنا وانتصاراتنا، ومعاركنا في الصدر الأول من تاريخ الدولة الإسلامية.

القعقاع بن عمرو فارس قبيلة تميم، تميم بن مر، تلك القبيلة التي أنجبت أعظم فرسان العرب وأشجعهم، القبيلة التي قدمت إلى رسول الله ﷺ، بعد فتح مكة في السنة التاسعة للهجرة، لتعلن إسلامها[١]

ويقال بأن القعقاع كان ضمن وفد قبيلة تميم الذي قـدم إلى رسول الله ﷺ[٢].

وبذلك نرى بأن القعقاع قد تربى في الحضرة النبويـــة الشريفة، وصاحب رسول الله ﷺ، واكتسب من دروسه العظيمة، ما أفـاد منه في حياته وجهاده بعد ذلك.

سأل رسول الله ﷺ القعقاع ذات يوم: ماذا أعددت للجهاد يا قعقاع؟ فأجابه القعقاع: طاعة الله ورسوله والخيل. فاستحسن الرسول ﷺ هذا الجواب وقال له تلك الغاية[٣].

هذا هو القعقاع حين فتح التاريخ صفحاته تاركاً له أن يسجل فيها مآثره وبطولته وشجاعته، بعد أن شرح الله - عز وجل - قلبه للإيمان، فحق للمؤرخين عندها أن يلتفتوا إليه ويتابعوا تفاصيل حياته.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: عبـــد السلام هارون. جـ٢ ص (١١٢). مكتبة المعارف بدمشق.

(٢) الطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال. ص (٤٩٣). الناشر دار النفائس بيروت.

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني. جـ ٣ ص (٢٣٠). الناشر المكتبة التجارية الكبرى.



الفصل الثاني

وفاة الرسول ﷺ ـ يوم السقيفة

١ ـ وفـــاة الرسول :

أول ما بدأ اسم القعقاع بن عمرو التميمي يتردد في كتاب التاريخ ، بدأ يتردد مصحوباً بالشك في أنه شارك في هذه الحادثة أم لم يشارك فيها ، وشهد تلك الواقعة أم لم يشهدها ؟!!

فقد قيل أن القعقاع قـد استوفى حكاية خطبة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بعد وفاة الرسول ﷺ ، فقال : قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلّها الصلاة على النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائـــه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وان الله هو الحق المبين ، اللهم فصلّ على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل مـــا صليت به على أحد من خلقك ، اللهم

وأجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة ، اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاماً محموداً يغبطه الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة وأخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة ، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم إنك حميد مجيد . أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنّة نبيه ﷺ ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط - ولا يشغلنكم الشيطان بحدث بينكم ولا يفتننكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم[١] .

فالرسول الكريم ﷺ توفي في شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة النبوية الشريفة[٢] . وكان أبو بكر (رضي الله عنه) خارج المدينة حين توفي الرسول ، فلما دخلها خف إلى بيت الرسول ، وصادف في طريقه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي كان يتوعد الناس ويتهدد منكراً أن الرسول انتقل إلى جوار ربه ويقول لهم : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي ، وأن رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعنّ أيدي

---

(١) احياء علوم الدين للامام الغزالي جـ ٤ ص(٤٥٩ - ٣٦٠) الناشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٢٠٠) الناشر دار المعارف بمصر .

رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات[1].

فلم يلتفت أبو بكر إلى كلام عمر، بل دخل بيت الرسول فوجده ﷺ مغطى ببرده الشريف، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي! أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذُقتَها ثم لن يصيبك بعدها موتةٌ أبداً[2]. ثم وقف يخطب في الناس الخطبة التي مرت بنا.

٢ – يوم السقيفة:

وقد قيل إن القعقاع شهد وفاة الرسول ﷺ، وعلم بأمر مبايعة الأنصار لزعيمهم «سعد بن عبادة» بعد أن علموا بوفاة الرسول ﷺ، وانه انطلق ليخبر المهاجرين بأمر هذه المبايعة[3].

فقد كان الأنصار يشعرون بحقهم في الخلافة ... ألم يؤوا الرسول ﷺ وقد جاءهم وأصحابه مهاجرين إلى مدينتهم بعد أن اضطهدتهم قريش وخذلتهم وضيقت عليهم السبل.. ألم يكونوا خير من ناصر الرسول ﷺ وآزره ووقف بجانبه، فكانوا هم من صدقوه وآمنوا بما جاء به من عند ربه، في الوقت الذي سخرت منه قريش وآذته وقاطعته هو وأصحابه... ألم ينتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه وهو في ديارهم، راضٍ عنهم، قرير العين بهم...

وخرج الأنصار بزعيمهم «سعد بن عبادة» ليولوه الأمر بعد وفاة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: للطبري جـ ٣ ص(٢٠٠) الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) » » » » » » » » » » »
(٣) الاصابة في تميز الصحابة. لابن حجر العسقلاني. جـ٣ ص(٢٣٠). المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

الرسول ﷺ ، واجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) وسعد بينهم مريض لا يقوى على الكلام ، فكان يتحدث ومن يقف حوله يرددون ما يقوله ليسمعه بقية أصحابه وتحدث سعد إلى الأنصار في السقيفة قائلاً : يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً لبث عليه السلام بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ، ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُموا[1] به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيدة المقادة صاغراً داخراً[2] ، حتى اثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين . استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس[3] .

واتفق الأنصار فيما بينهم على أن يكون منهم أمير ومن أصحاب رسول الله ﷺ أمير إذا نازعهم المهاجرون في هذا الأمر .

وعلم المهاجرون بأمر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، إذ جاء رجل يسعى ولعله القعقاع فقال : هاتيك الأنصار قد اجتمعت في ظلة

---

(١) عموا : شملوا .

(٢) داخراً : ذليلا .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٣ ص (٢١٨) . الناشر : دار المعارف بمصر.

بني ساعدة ، يبايعون رجلاً منهم ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير [١] .

وكان ممن علم باجتماع الأنصار ، عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فبعث إلى أبي بكر ، وخرجا سوية يقصدان السقيفة ولقيا في طريقهما أبا عبيدة بن الجراح ، فمضوا ثلاثتهم حتى أتوا الأنصار .

وهمّ عمر بالكلام فاستوقفه أبو بكر . وخاطب أبو بكر الأنصار قائلاً : إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت ، وخشب منجور ، ثم قرأ : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[٢] . وقالوا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى) [٣] ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف ، زارٍ عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشَنَفِ الناس[٤] لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٣ ص (٢٠٣) . الناشر : دار المعارف بمصر .
(٢) سورة يونس ١٨ .
(٣) سورة الزمر ٣ .
(٤) شنف الناس : إعراض الناس واستعلاؤهم .

فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحـــد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور[1] .

وقال أبو عبيدة بن الجراح : يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغيَّر .

فقام عندها « بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير » (وهو من الأنصار) فقال : يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ، فإن الله وليّ المنة علينـــا بذلك ، ألا إن محمداً ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى . وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم![2].

وخاطب أبو بكر القوم : هـــذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . فقال عمر : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك أو يتولى هــذا الأمر عليك ، ابسط يدك نبايعك[3] .

وقال أبو عبيدة ما قاله عمر فما كان له وهو أمين هـــذه الأمة أن يرضى لها الفتنة والفرقة .

وسبق «بشير بن سعد »عمر وأبا عبيدة وأخذ بيد أبي بكر مبايعاً ، وبايعاه بعده عمر وأبا عبيدة .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٢١٩ - ٢٢٠) .
(٢) » » » » » » (٢٢١ - ٢٢٢) .
(٣) » » » » » » (٢٢٣) .

وحين رأت الأوس ذلك قام أحد نقبائها وهو « أسيد بن حضير » وقال : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر[1].

فبايعت الأوس أبا بكر وتبعها بقية الأنصار بعد ذلك ، حتى إنهم كادوا أن يطؤوا زعيمهم « سعد بن عبادة » وهم مندفعون لمبايعة أبي بكر.

وهكذا بايع الأنصار والمهاجرون أبا بكر ، وقضي على الفتنة في مهدها ، ووقى الله المسلمين شرها ، وفتحت بعدها صفحة جديدة في تاريخ الدولة الاسلامية وكان على رأسها خليفة رسول الله ﷺ ، أبو بكر الصديق .

وسواء أصح أن القعقاع قد شهد وفاة الرسول ﷺ وأنه انطلق ليخبر المهاجرين بأمر مبايعة الأنصار لزعيمهم « سعد بن عبادة » ، أم لم تصح هذه الحادثة ، فإنها لو وقعت لما كان غريباً على القعقاع اسراعه لإخبار المهاجرين بأمر الفتنة التي بدأت تتحرك في (سقيفة بني ساعدة) ، فقد كان القعقاع والإيمان يعمر قلبه ، مخلصاً لهذا الدين الحنيف الذي آمن به ونذر نفسه للدفاع عن رايته ، كان وفياً لعهد رسول الله ﷺ وصحابته من بعده كما سيأتي معنا في الفصول القادمة من هذا الكتاب .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص«٢٢٢» . الناشر دار المعارف بمصر .

الفصل الثالث

في خلافة أبي بكر الصديق

حروب الردة :

كان اسهام القعقاع بن عمرو ، في حروب الردة ، وقتاله للمرتدين ، محدوداً إذا ما قيس بالحروب التي أسهم بهـا والفتوح التي شارك فيهـا بالعراق والشام .

فحتى هذه المرحلة من تاريخ الدولة الاسلامية ، لم تأتِ كتب التاريخ على ذكر القعقاع بشكل مفصل ووافي الشرح ، وبالقدر الذي يمكننا من معرفة حقيقة دوره في قتال المرتدين ، اللهم إلا ذكر توجهه بنـاء على أوامر أبي بكر لقتـال « علقمة بن علاثـة » الـذي خرج في بني كلاب مرتداً .

فقد اجتاحت موجة الارتداد عن الدين الحنيف ، والتفريط بأركانه معظم الجزيرة العربية ، فكان ارتداد القبائل في الجزيرة عامـاً ، ولم

ينج من هـــذه الموجة إلا أهـــالي مكة والمدينة ، وقبيلة ثقيف في الطائف .

ولكن يخطىء من يظن بأن الردة لم تحدث إلا في عهـد أبي بكر الصديق ؟!!

فالارتداد حدث بشكل ضيق والرسول ﷺ ، لا يزال حياً يعيش بين أصحابه في المدينة . فأول حركة ارتداد ، حدثت في جنوب الجزيرة العربية ، في اليمن . وأول المرتدين كان « عبهلة بن كعب » الذي عرف بالأسود العنسي . على أن هذه الحركة قضي عليها والنبي لا يزال على قيد الحياة (١) .

أما أخطر وأكبر حركةٍ ارتداد عصفت بالدولة الإسلامية الفتيــة ، فهي ما حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ . فاعتناق القبائل العربية للإسلام بعد فتح مكة ، لم يكن بدافع الإيمان في معظم الأحيان ، بل كان نوعاً من تقديم الولاء والطاعة للرسول ﷺ ، وما أن انتقل الرسول الكريم إلى جوار ربه حتى ظنت القبائل أنها في حل من العهد الذي قطعته على نفسها للرسول الكريم ، حين أتتــه طائعة مقرة بدعوته وبالرسالة التي جاء بها من عند ربه . بل ووجد زعمـــاء القبائل بالنبوة فكرة يمكن الاستفادة منها في اكتساب مزيد من الولاء والطاعة ، فادعى بعضهم النبوة ، وأسقط آخرون بعض التكاليف في الدين الحنيف .

فماذا كان موقف الخليفة أبي بكر الصديق من كل هذا ؟!!

لقد عرف عن أبي بكر شدة ورعه وتقواه ، وسرعة تأثره ، ورقـة قلبه ، ولكن الحوادث التي تعاقبت بعد وفاة الرسول ، قـد أثبتت أن أبا بكر له صفات القائد المحنك المجرب ، القادر على إيفاد الجيوش وتسييرها

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص«٢٣٩» . الناشر دار المعارف بمصر .

وإعداد الخطط لقادتها ، وله صفات المؤمن الحريص على دينه الشديد في التمسك بتعاليمه وعدم التهاون بشأن من شؤونه .

جاءت القبائل تعرض على أبي بكر اقامة الصلاة وعدم دفع الزكاة ، فرفض أبو بكر ذلك ، فالدين كل لا يتجزأ ، ولا يعني القيام بتكليف من تكاليفه جواز اسقاط تكليف غيره .

كان أبو بكر شديداً في قتاله للمرتدين ، راغباً في افهام أولئك الذين تصوروا أنه بوفاة الرسول قد ضعف شأن الاسلام مبيناً لهم أن الصحابة الذين تربوا في الحضرة النبوية الشريفة ، أقوى وأشد حرصاً على دينهم من أي وقت مضى . حتى انه قال لعمر وقد أتاه الأخير يقول له : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ! كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه .

وكان رد أبي بكر الحازم : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً [١] لقاتلتهم على منعها [٢] .

وتاريخ حروب الردة وما جرى خلالها معروف لكل دارس وباحث ولكن ما يعنينا في هذا المقام هو دور القعقاع في هذه الحروب .

فقد بعث أبو بكر بالقعقاع على رأس سرية من المسلمين لتأديب « علقمة ابن علاثة » .

وكان علقمة قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول ﷺ ، ثم خرج بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام ، فلما توفي النبي أقبل علقمة مسرعاً حتى

---

(١) الأنثى من المعز .

(٢) عبقرية الصديق ، عباس محمود العقاد ص«١٥٢». الناشر دار المعارف بمصر

عسكر في بني كعب مقدماً رجلاً ومؤخراً أخرى وكان ذلك في السنة الحادية عشرة للهجرة النبوية الشريفة .

وعلم بذلك أبو بكر فبعث له بالقعقاع وقال له : يا قعقاع ، سر حتى تغير على علقمة بن علاثة ، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله ، واعلم أن شفاء الشَّقّ الحوْص[1] ، فاصنع ما عندك[2] .

فاغار القعقاع على الماء الذي عليه علقمة ، فاستبى امرأته وبناته ونساءه وقدم بهم وبعلقمة أسيراً على الخليفة . ولكن ولد علقمة وزوجه أنكروا أنهم جاروا علقمة في ارتداده ! وكان أن عاد علقمة بعد ذلك عن ردته وأسلم فقبل منه الخليفه اسلامه .

ولكن هذه المهمة البسيطة التي اضطلع بها القعقاع لا تعطي الصورة الحقيقية عن شجاعته وقدرته .

وجاء الوقت أخيراً ليفتح التاريخ صفحاته للقعقاع ليسجل فيه مآثرة وبطولاته وشجاعته الفائقة ، وبدأ ذلك حين سير أبو بكر الجيوش لفتح العراق .

فتح العراق :

عقد الخليفة أبو بكر الصديق لسيف الله خالد بن الوليد (رضي الله عنه) لواء فتح العراق .

فخالد الذي أبلى بلاء حسناً في حروب الردة وكان له كبير أثر في انتصار المسلمين على المرتدين ، كان هو المؤهل أكثر من غيره لقيادة الجيوش الإسلامية لفتح العراق ومحاربة الفرس .

---

(١) الحوض : الخياطة .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ٣ ص«٢٦٢». الناشر دار المعارف بمصر.

كان آخر عمل كبير لخالد في حروب الردة، هو «معركة اليمامة» التي انتهت بانتصار المسلمين، ومقتل زعيم المرتدين «مسيلمة الكذاب».

كتب أبو بكر إلى خالد بعد أن فرغ الأخير من قتال المرتدين ليتوجه بجيشه لفتح العراق، على أن تكون وجهته الأولى منطقة (الأبلة) ثغر الفرس على الخليج. وحدد له مدينة (الحيرة) هدفاً له.

على أن أبا بكر أجاز لمن شاء من جيش خالد بالرجوع إلى بلدته، وطلب من خالد أن لا يصحب معه إلى العراق كاره للقتال. (وأذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره)[1].

وفوجىء خالد حين قرأ رسالة الخليفة على جنده، بالكثير منهم يعودون غير راغبين في المضي معه لفتح العراق.

فكتب خالد إلى الخليفة يعلمه بما جرى طالباً منه أن يمده بجنود بدل الذين انفضوا عنه.

فأرسل أبو بكر إلى خالد بالقعقاع بن عمرو ؟! وحين سأله أصحابه مستغربين: أتمد رجلاً قد ارفض عنه جنوده برجل! قال أبو بكر: لا يهزم جيش فيه مثل هذا !!![2].

وهنا نتوقف قليلاً لنستعرض تلك الواقعة من جديد..

انفض معظم جند خالد عنه، غير راغبين في الذهاب معه لفتح العراق وقتال الفرس، وحين استنجد خالد بالخليفة طالباً منه أن يمده بالجنود، أرسل له الخليفة القعقاع !!!

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: للطبري - جـ٣ ص«٣٤٦»، الناشر دار المعارف بمصر. خطاب الخليفة موجه إلى خالد وإلى عياض بن غنم الفهري.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: للطبري - جـ٣ ص«٣٤٧». الناشر دار المعارف بمصر.

انه من الغريب أن تهمل كتب التاريخ ذكر القعقاع حتى هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية . فرجل مثل القعقاع ارتبط النصر به ، لا يعرف معنى للهزيمة ، يحوز ثقة الخليفة ورضاه وتقديره ، ويعتمد عليه في هذا الظرف العصيب ، لحري به أن يتصدر صفحات البطولة والشجاعة ، وأن تلهج الألسنة بذكر مآثره وأمجاده ومفاخره .

إن شهادة الخليفة بالقعقاع ، إن كانت تدلنا على صفة من الصفات التي يتسم بها القعقاع وهي الشجاعة والبطولة والمقدرة ، فإنها في الوقت نفسه تجعلنا نتساءل ونقول : لو كان القعقاع شخصية مغمورة ، خاملة الذكر ، ليس لهـا دورها ومكانتها في تاريخ العرب وأمجادهم ومفاخرهم قبل الإسلام ، فهل كان الخليفة (وهو المعروف عنه ، والمشهور به علمه بأنساب كل قبيلة ومفاخر أبطالهـا ومثالب أفرادها) ليهتم بصاحب تلك الشخصية ، ويبعث به إلى تلك المهمة الصعبة ويعتمد عليـه ويمد خالداً به ؟!!

لا بد أن المعاصرين لحياة القعقاع منذ نشأته الأولى والذين تابعوا بعد ذلك سيرة حياته ، كانوا يعرفون شجاعته وبطولته ومقدرته ولا بد من ان الخليفة كان واحداً من أولئك .

١ – معركة ذات السلاسل :

لم يوجه الخليفة خالداً لوحده لفتح العراق ، بل سير جيشاً آخر بقيادة « عياض بن غنم الفهري » وأمره أن يدخل العراق من أسفلها ويتجه إلى (الحيرة) أيضاً ، ومن يسبق منهما (خالد أو عياض) إلى (الحيرة)، فهو أمير على صاحبه [١] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : جـ٣ ص « ٣٤٧ » الناشر دار المعارف بمصر .

كما أمر الخليفة « مثنى بن حارثة » زعيم قبيلة بني بكر ، و « عدي ابن حاتم » زعيم قبيلة طيء بأن ينضموا إلى خالد . وتجمع له بعد ذلك من قبيلتي مضر وربيعة ثمانية آلاف مقاتل فبلغ مجموع جيش خالد يومها ثمانية عشر ألف فارس [1] .

قسم خالد جيشه (وفيه القعقاع) إلى ثلاث فرق ، وانطلقت الفرق من (اليمامة) باتجاه (الأبلة) ، وكان بين الفرقة والأخرى مسيرة يوم . وعمد خالد إلى هـــذه الطريقة ليضمن لجيشه سرعة الحركة وخفتها ، ولئلا يستغرق زمناً طويلاً في المسير إذا حرك جيشه كله دفعة واحدة بالاضافة إلى ضمان خطوط تموينه وتراجعه عبر الصحراء .

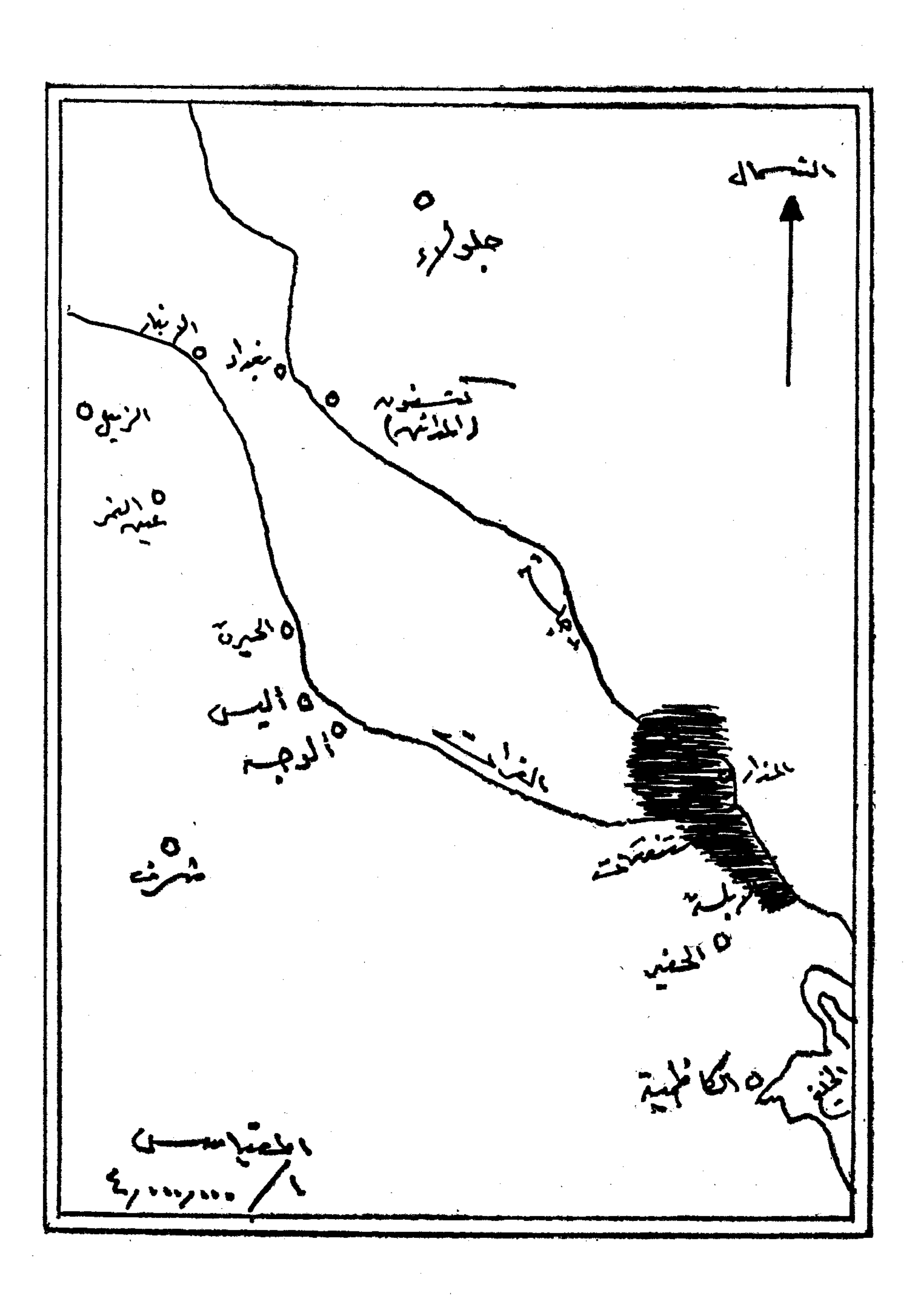
كان « هرمز » حاكم الفرس على مدينة (الأبلة) — مينـاء الفرس الرئيسي والاستراتيجي على الخليج — رجلاً عسكرياً وقائـداً محنكاً ، معروفاً بتعاليه وازدرائه للعرب .

أرسل له خالد قبل أن يغادر (اليمامة) كتاباً قال له فيه : أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة [2] ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة [3] .

وما إن وصل الكتاب لهرمز ، حتى جمع جيشه وأبلغ ملك الفرس في (كتسفون) [4] « أردشير » بمضمون كتاب خالد ، وأسرع بعدها ليتجه بجنده نحو منطقة (الكاظمية) وهي على الخليج في محاولة منه لوقف زحف خالد وجيشه نحو مدينة (الأبلة) وما إن وصل اليها حتى نشر جنده

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: جـ٣ ص«٣٤٧» ،الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) أي أقرر أنت وقومك بالذمة .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ٣ ص «٣٤٨» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٤) وهي المعروفة باسم المدائن .



الشمال
جلولاء
الأنبار
بغداد
(المدائن)
الزميل
عين التمر
دجلة
الحيرة
أليس
الولجة
الفرات
المذار
الأبلة
الحفير
الكاظمة
الخليج
المقياس
٤,٠٠٠,٠٠٠/١

فيها وانتظر قدوم خالد وجنده . ولكن خالداً ، وقد عرف بترتيب جيش الفرس والنظام الذي يتبعه في قتاله ، وكان مشهوراً عن الفرس قتالهم سوية وتجمعهم مع بعضهم ، فتسليح الجندي الفارسي والمعدات التي يستعملها في قتاله والأسلحة التي يحارب بها ، كل هذا كان يعرفه خالد ويعرف بطء حركة جيش الفرس ، وعدم قدرتــــه على السير مسافات طويلة لثقل المعدات التي يحملها ولكثرة أدوات القتــال معه ، فيحرمه ذلك من سرعة الحركة وينهكه إذا ما سار مسافات طويلة . فعمد خالد إلى استغلال نقطة الضعف هذه ما أمكنه !

فلم يتجه خالد إلى منطقة الكاظمية كما قدر «هرمز» ، بل اتجه إلى منطقة (الحفير)[1] ، في محاولة لجذب « هرمز » وجنده اليهـــا . فهرمز لن يقبل بوجود خالد وجنده في (الحفير) ، لأن في ذلك تهديداً لقاعدته في (الأبلة). فأسرع ليقود جيشه إلى منطقة (الحفير) ، وتم لخالد ما أراد ، فالمسافة التي قطعها جيش الفرس بين (الكاظمية) و(الحفير) ، وما كان يحمله من أسلحة وعتاد وأدوات حرب ، كل هذا أنهكه وأضعف من قوته . ولكن « هرمز » وقد وصل الحفير ولم يجد خالداً ؟! فخالد قد عاد من جديد إلى (الكاظمية) ، وفي محاولة أخرى لإضعاف وإنهاك جيش الفرس ...

وعرفت كشافة جيش الفرس فأخبرت هرمز بذلك ، فعاد من جديد بجيشه الذي لاحت عليه أمارات التعب والتذمر إلى (الكاظمية) ، ليجد خالداً وجيشه بانتظاره .

عمد خالد إلى تقسيم جيشه إلى جناحين وقلب ، وجعل على الجناحين

---

(١) الحفير : تبعد عن البصرة أربعة أميال في الطريق بين البصرة ومكة معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٢ ص (٢٧٧) . الناشر : دار صادر بيروت .

« عاصم بن عمرو » (شقيق القعقاع) ، « وعــــدي بن حاتم » (زعيم قبيلة طيء) .

وقسم « هرمز » جيشه بالأسلوب نفسه ، فجعل على الميمنة « قباذ » وعلى الميسرة « أنو شجان » وهما أولاد « أردشير » . وأضمر « هرمز » لخالد الخديعة والغدر ، وكان « هرمز » معروفاً بخبثه حتى إنه كان مضرب المثل ، فكان يقال : أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز[1].

فقد أوعز « هرمز » لبعض جنده بأن يتربصوا بخالد وما أن يرونه مشغولاً بالقتال معه حتى يسرعوا فيقتلوه غدراً ، فيفت ذلك في عضد جيش المسلمين ويبدد شملهم .

وخرج « هرمز » ونادى : أين خالد ؟ وأجابه خالد لندائه : وخرج له ، فطلب منه هرمز أن يتقاتلا وهما راجلان !!

فنزل خالد عن فرسه ، كما نزل « هرمز » ، واشتبكا بالسيوف ، ثم رميا السيوف وتصارعا وحانت الفرصة التي ينتظرها جند هرمز للغدر بخالد ، فأسرعوا اليه ليقتلوه ..

ولكن صفوف المسلمين انشقت عن فارس مقدام يسرع والسيف بيده يلحق بخالد ، وقد رأى جند الفرس يخفون للغدر به وهو مشغول عنهم بصراعه مع « هرمز » .

كان هذا الفارس المقدام هو القعقاع الذي لم يجد وقتاً لتنبيه أصحابه لغدر الفرس ، فأسرع بنفسه لينقذ خالداً ، ووصل اليه قبل أن يتمكن منه جنود « هرمز » . فأثبت القعقاع وهو لا يزال في أول معاركه ، قوة ملاحظته وسرعة بديهتــه وحسن تقديره ، فكان أن خف لإنقاذ قائده والدفاع عنه ورد كيد الفرس .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ ص «٣٤٨» الناشر دار المعارف بمصر .

ورأى المسلمون ذلك ، فعرفوا أن الوقت قد حان للهجوم ، فاندفعوا نحو الفرس بقوة وشجاعة وسرعان ما التحم الجيشان وتمكن خالد في هذه المعركة من قتل قائد الفرس « هرمز » بعد أن رماه أرضاً وطعنه بخنجره ، ليترك جثته بعدها ملقاة في أرض المعركة ولينضم إلى جنده في قتالهم للفرس .

كان الفرس قد عمدوا قبل بدء المعركة إلى ربط بعضهم بالسلاسل ، لأن نظام قتالهم كان يعتمد على تجمعهم سوية بحيث لا يدعوا ثغرة تنفذ بينهم فدروعهم وأسلحتهم وأدوات حربهم كانت تساعدهم على القتال والصمود ما داموا بجانب بعضهم بعضاً ، ولكن نظامهم هذا كان مصيدة كبيرة لهم لو لحقت بهم الهزيمة ...

في حين أن المسلمين كانوا يمتازون بسرعة الحركة وخفتها ، وبالقدرة على المناورة ، وهذا ما استفادوا منه في كل معاركهم بعد ذلك .

حمل المسلمون عدة حملات قوية ومركزة على الفرس ، ولكن الفرس بقوا صامدين ، وبقيت المعركة متأرجحة بين الفريقين لبعض الوقت انهار بعدها صمود الفرس وتراجعوا تحت ضغط وشجاعة المسلمين ومقدرتهم مما نتج عنه هزيمتهم فلم يجدوا بعدها مناصاً من الهرب ، ووقعوا في الفخ ، فقد حسبوا أن السلاسل ستساعدهم في قتالهم مع المسلمين فإذا بها تنقلب أكبر مصيدة لهم . فأعمل فيهم المسلمون بالسيوف والرماح وقتلوا الكثيرين منهم قبل أن يتمكن البقية من الفرار . وكان ممن فر من أرض المعركة قائدا جناحي جيش الفرس ، « قباذ » و« أنو شجان » .

وسميت هذه المعركة (معركة السلاسل) ، نسبة إلى السلاسل التي ربط الفرس جنودهم بها . وقد جرت في شهر محرم من السنة الثانية عشرة للهجرة .

وبدأ من وقتها نجم القعقاع يتلألأ في سماء المعارك والفتوح الإسلامية، مسجلاً أروع المفاخر، وأكبر الانتصارات .

٢ – معركة النهر (أو وقعة الثنى أو المذار)[١] :

لما وصلت رسالة « هرمز » إلى الملك الفارسي « أردشير » تعلمه بتوجه خالد إلى (الأبلة) ، جهز « أردشير » جيشاً فارسياً ووضع على رأسه « قارن بن قريانس » ، وأمره بالتوجه إلى (أبلة) لمساعدة « هرمز » .

ولكن « قارن » ما أن وصل إلى (المذار) مجتازاً نهر دجلة ، حتى علم بهزيمة جيش الفرس ومتقل « هرمز » ، فقد لحقت فلول الجيش الفارسي المهزوم بقارن ومن بينها القائدان « قباذ ، وأنوشجان » . فقرر « قارن » أن ينتظر خالد في (المذار) ، فالمكان أفضل من سواه ، فهو يؤمن مؤخرة جيشه حيث المياه خلفهم تحميهم من أي التفاف ، كما أن « قارن» لم يستغنِ عن المراكب التي عبر عليها هو وجنده إلى الضفة الجنوبية من نهر دجلة .

علم خالد بخروج « قارن » ، وإقامة معسكره في (المذار) ، فقرر أن يتجه اليه مباشرة دون أن يدخل مدينة (أبلة) ، فقد علم أن الفرس غادروها ولحقوا بجيش « قارن » ، إلا أنه بعث « بمعقل بن مقرن » وأمره أن يدخل (أبله) ويغنم ما فيها .

وصل خالد (المذار) فوجد « قارن » قد أقام معسكره فيها . ودرس خالد كعادته أرض المعركة ، وقوة جند العدو ، واحتمالات الالتفاف والخديعة ، ولكنه لم يجد أي مجال لأي التفاف خلف الفرس ، فالنهر يحميهم وليس له إلا أن يقاتلهم وجهاً لوجه . فقسم جيشه بنفس الطريقة

---

(١) تسمي العرب النهر بالثني . والمذار مدينة على نهر دجلة .

التي فعلها في معركة السلاسل وأمر على الجناحين ، « عاصم بن عمرو » « وعدي بن حاتم » .

وبدأت المعركة بالقتال التقليدي . خرج « قارن » من بين صفوف الفرس متحدياً فرسان المسلمين .. فخرج له « معقل بن الأعشى » وبارزه وسرعان ما قتله ، فخرج « قباذ » ابن ملك الفرس فالتقى به « عدي » فقتله ، وأما « أنوشجان » فقتله « عاصم »[1] والتحم الجيشان بعد ذلك ولم يصمد جيش الفرس إلا لبعض الوقت تراجع بعدها وقد قتل قادتهم فعمت الفوضى بينهم ، فلم يجدوا مناصاً من الهرب ، وتدافعوا نحو المراكب التي كانت في نهر دجلة وألقوا بأنفسهم فيها ، في محاولة يائسة للنجاة إلى الضفة الأخرى من النهر ، ولكن المسلمين أسرعوا خلفهم وتمكنوا من قتل الكثيرين منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار عبر نهر دجلة .

لقد جرت هذه المعركة في شهر صفر السنة الثانية عشرة للهجرة . وقتل للفرس فيها قرابة ثلاثون ألف فارس[2] . وارتجز القعقاع بعدها ، وكان في صفوف المجاهدين :

فنحنُ وطئنـا بالكواظمِ (هُرمزا)
وبالثِّني قَرْنَي (قارنٍ) بالجوارف[3]

٣ – معركة الولجة :

ما ان وصلت أخبار هزيمة جيش « قارن » إلى ملك الفرس « أردشير » حتى أمر بتجهيز جيشين فارسيين قويين لوقف زحف المسلمين نحو (الحيرة) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ « ٣٥١ » الناشر دار المعارف في مصر .
(٢) » » » » ج ٣ « ٣٥٢ » » » » »
(٣) » » » » ج ٣ « ٣٦٥ » » » » »

لقد تملكت الدهشة الفرس وهم يتـابعون هزائم جيوشهم الواحد تلو الآخر من قبل هذه القوة القادمة من الصحراء العربية فما تصوروا أن للعرب مثل هذه القوة والشجاعة ، وأنهم قادرون على القتـــال بالمقدرة والحماسة نفسها ، فكأنهم يبدأون معركة جديدة ، في حين أنهم يكونوا حديثي العهد في الفراغ من معركه سبقتها . ولم يعلم الفرس ، بأن الله – عز وجل – وقد شرح صدور العرب للايمان ، أمدهم بقوة فوق قوتهم ، وبشجاعة فوق شجاعتهم ، ووعـدهم بجنات ٍ تجري من تحتها الأنهار لمن قتل في سبيله ، وبثواب عظيم لمن يجاهد لإعلاء كلمته وابقاء راية الإسلام مرفوعة .

لم يكن المسلمون يحاربون بقوتهم وشجاعتهم فقط ، بل بإيمانهم أيضاً ، مع ما يبعث في القلوب من ثبات وتضحية ، فحق لهم النصر ، وطابت نفوس أولئك الذين ظفروا بالشهادة في النعيم الدائم .

تجمع أولى الجيشين الفارسيين في عاصمة الفرس ، وقد وفد اليها الجنود من الحاميات والمدن الفارسية للانضمام لهذا الجيش ، وفي غضون بضعة أيام تجهز الجيش الفارسي ووضع على رأسه القائد « الأندرزغر » .

أما الجيش الآخر فقد تجهز وانطلق أيضاً من مدينة (كتسفون) ، وكان على رأسه القائد الفارسي « بهمن بن جاذويه » .

وأمر الملك « أردشير » القائدين الفارسيين بأن ينتظرا بعضهما في (الولجـة) ليجمعا جنودهما في جيش واحد كبـير ، يكون على رأسه « بهمن » ، في محاولة لإيقاف المسلمين وصدهم عن أرض الامبراطوريـة الفارسية .

ووصل « الأندرزغر » إلى (الولجة) قبل « بهمن » ، فعسكر بالقرب منها ، وكتب إلى القبائل العربيـة التي لا تزال على نصرانيتها وولائها

للفرس لكي تنضم إلى جيشه ، فلحق به الكثيرون من أفراد هذه القبائل .

كانت العيون التي بثها خالد بين الفرس ومعظمها من العرب الذين كانوا سابقاً يدينون بالولاء للفرس ثم انضموا إلى خالد فيما بعد ، هم الذين أخبروه بتحرك الجيشين الفارسيين . فأعد خالد العدة لملاقاة الفرس .

وعزم على ملاقاة جيشهم بقيادة « الأندرزغر » وقتاله قبل أن يصل جيش « بهمن » إلى (الولجة) ، ويكون في ذلك مزيد من الخطر والشدة على جيش المسلمين .

ونجح « خالد » في الوصول إلى (الولجة) قبل أن يصلها « بهمن » وجيشه ، واستعد لملاقاة « الأندرزغر » وجيشه . ودرس أرض المعركة كعادته ، ووضع خطته ، وبث عيونه ، واستنهض همة رجاله .

كانت أرض المعركة سهلاً صحراوياً يمتد بين هضبتين منخفضتين في الشرق والغرب ترتفع الأولى عن الثانية قرابة (٣٠) قدماً ، وبينهما مسافة تقدر بنحو ميلين ، وكان هناك هضبة أخرى من ناحية الشمال الشرقي [١] . كان جيش الفرس يتمركز عند سفح الهضبة الغربية ، ووجهته إلى الشرق ، فوقف خالد بجيشه قبالته ، وظهره للهضبة الشرقية واستعد الجيشان للقتال .

أوعز خالد في الليلة السابقة للمعركة ، لفارسين من فرسانه هما « بُسر بن أبي رهم » ، و« سعيد بن مرة العجلي » ، بأن يقود كل واحد منهما ألف فارس من فرسان جيش المسلمين ، وينطلق به تحت جنح الليل ليختبئوا خلف الهضبة الغربية واتفق معهما على إشارة معينة

---

(١) سيف الله خالد بن الوليد : للجنرال أ . أكرم ص « ٢٧٣ » . الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت .

يطلقها اليهما ، فينقضان على جيش الفرس من مؤخرته مما يسبب الهلع والذعر ، وتدب الفوضى في صفوف الجيش الفارسي موصيهما في الوقت نفسه بأن يستخدموا بشكل فعّال أساليب الإخفاء والتمويه حرصاً على نجاح الخطة المرسومة .

وبالفعل نجحت خطة خالد ، ففي اليوم التالي دارت المعركة واشتبك الجيشان ووقف مشاة جيش المسلمين بقيادة خالد يغيرون على جيش الفرس محاولين اختراق صفوفه ، والنفاذ بينهم فما استطاعوا ذلك . فجيش الفرس بعدده الكبير وبعتاده ، كان يتصدى لهجوم المسلمين ، ويقف في طريق تقدمهم ، ونال التعب من المسلمين وهم يكررون محاولاتهم لشق صفوف الفرس وأولئك يردونهم ، وجاء دور الفرس فحملوا على المسلمين ودفعوهم للخلف فتراجع المسلمون بخطوات ثابتة وهم لا يدرون كيف سيجد لهم قائدهم خالد منفذاً إلى جيش الفرس !!

وفي اللحظة الحاسمة ومع إطلاق الاشارة المتفق عليها سمعت صيحات: الله أكبر ! الله أكبر .. تهدر من خلف صفوف جيش الفرس ، ولاحت طلائع فرسان المسلمين تنقض على الفرس يلحق بها بقية الفرسان وقد خرجوا من مخبأهم خلف الهضبة الغربية والتفوا مسرعين يطوقون الفرس من خلفهم ، وأتوهم على حين غرة فأعملوا فيهم بالسيوف والرماح وبددوا شملهم ونشطت همة مشاة المسلمين فحملوا من جديد على الفرس، وقتلوا الكثيرين منهم ولم ينج إلا القليل كان من بينهم القائد الفارسي « الأندرزغر » الذي فر إلى الصحراء وتاه فيها ومات عطشاً .

ووقف خالد في آخر المعركة ، وقد انتصر جنده على الفرس بفضل شجاعتهم وثباتهم ، وبفضل خطته المحكمة التي وضعها قبل بدء المعركة، يخطب في جنده ويقول لهم : ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب[1] ،

---

(١) رفغ التراب : مجتمع التراب .

وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عزّ وجل ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه[1].

وجرت هذه المعركة في شهر صفر من العام الثاني عشر للهجرة .

٤ - معركة (أليس)[2] :

كان من بين الفارين بعد معركة (الولجة) كثير من العرب النصارى وهم من قبيلة بني بكر . وقــد تجمع هؤلاء في (أليس) وبعثوا منهم أناساً إلى الملك « أردشير » طالبين منه المعونـة والمساعدة لوقف زحف جيش خالد ، وللانتقام لاخوانهم الذين قتلوا في معركة (الولجة) . كما أرسلوا إلى بقية العرب النصارى الذين يدينون بالولاء للفرس والمنتشرين في مدنهم لينضموا اليهم في (أليس) لمحاربة المسلمين .

وكان « بهمن بن جاذويه » قد سمع بأمر اشتباك جيش المسلمين بجيش الفرس في (الولجة) ولم يكن قد وصلها بعد ، توقف حيث وصل ولم يتابع طريقه بانتظار أوامر الملك « أردشير » .

وجاءته الأوامر ليتجه إلى (أليس) وليضم عرب النصارى فيهـا إلى جيشه ليحاربوا معاً جيش المسلمين وعلى رأسهم خـــالد . ولكن « بهمن » أمر على جيشه القائد « جابان » وعـاد هو إلى عاصمة الفرس ليلتقي بملكهم .

وعلم خالد بتجمع عرب النصارى في (أليس) فأسرع اليهـا بعد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص « ٣٥٤ » . الناشر دار المعـــارف بمصر . حين هاجم المسلمون الفرس كانوا يستعدون لتنـــاول طعامهم ، ولكن القتال شغلهم عن ذلك ، وانتهت المعركة ليجد المسلمون صفائح الطعام منتشرة في معسكر الفرس

(٢) (أليس) : مكان يبعد عن (الولجة) مسافة عشرة أميال .

أراح جنـــده لبضعة أيام وقسم بينهم الغنائم التي غنمها بعد معركة (الولجة) .

أراد خالد أن يحارب عرب النصارى في (أليس) وحدهم وقبل أن ينضم اليهم جيش الفرس ، فحث الخطى اليها ولكن الفرس بقيـــادة « جابان » سبقوه هذه المرة ، فوصل خالد وجنده إلى (أليس) ليجدوا الفرس وعرب النصارى في انتظارهم وكان زعيم عرب النصارى « عبـد الأسود » ، يتحرق شوقاً للانتقام من خالد وجيشه فقـد قتل ولداه في (الولجة) على يد المسلمين .

لم تكن أرض المعركة القائمـــة بالقرب من نهر الفرات تسمح بأي التفاف أو تطويق قد يعمد اليه خالد أو يستفيد منه فلم يكن هنـاك مناص من المواجهة الفعلية والقتال القريب .

وخرج خالد أمام جيشه في بدء القتال ونادى : أين « أبجر » ؟ أين « عبد الأسود » ؟ أين « مالك بن قيس » ؟ [1] .

فلم يجبه إلا « مالك » الذي خرج ليبارزه ، وسرعان ما قتله «خالد» ليشتبك بعدها جيش المسلمين بجيش الفرس وكان جناحاه عرب النصارى وعليها « عبد الأسود والأبجر » .

كان القتال قاسياً والالتحام شديداً ، فالسيوف يلمع سناها عبر الغبار الذي تثيره سنابك الخيل ، والرماح تقذف من فوق الرؤوس لتسقط فتصيب ضحاياها ، والسهام ترشق من مسافات متباعدة لتظفر بجندي على فرسه أو بمقاتل يحاول الإجهاز على آخر . وحمي وطيس المعركة وثقل القتال على الطرفين ونال منهما التعب والجهد والإعياء ، والمسلمون صابرون يلوذون بشجاعتهم وثباتهم وايمانهم ، يقتحمون حيناً ويتراجعون

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٣٥٦ » . الناشر دار المعارف بمصر .

أحياناً أخرى ، وهم بين كرّ وفرّ وبدا وكأن المعركة ليس لها آخر !!
وكان أن لاحت بوادر النصر للمسلمين ، وحملوا حملاتهم الأخيرة ، فاخترقوا صفوف الفرس وعرب النصارى ، وهزموهم أخيراً .

وبانتصار المسلمين في هذه المعركة أضافوا نصراً جديداً إلى انتصاراتهم المتتابعة على الفرس وأصبح الطريق بعدها مفتوحاً لهم إلى الحيرة .

٥ - فتح الحيرة :

بعد انتصار المسلمين في (أليس) ، تقدم خالد بجيشه نحو (أمغيشيا)[١] . فوجدها خالية من أهلها ، فقد غادرها نساؤها وشيوخها وأطفالها فارين إلى المدن الفارسية المجاورة بعد أن التحق شبابها قبلاً (بأليس) لمحاربة المسلمين غنم المسلمون ما وجدوه في (أمغيشيا) ، وكانت غنيمتهم هذه المرة عظيمة ، فأهل (أمغيشيا) غادروها وتركوا كل ما فيها على حاله فلم يكونوا يبغون إلا الفرار بأنفسهم هرباً من جيش المسلمين الذي أصبح مجرد ذكره يثير الهلع والخوف في قلوبهم . وكان مما غنمه المسلمون عدداً من المراكب التي كانت راسية على ضفة نهر الفرات .

كان على الحيرة القائد الفارسي « آزاذبه » ، الذي وقعت على عاتقه مهمة الدفاع عنها ، فأمر بعض جنده وعلى رأسهم ابنه ، لينطلقوا إلى القناطر القائمة على نهر الفرات ويسدوا الماء عن النهر ، في محاولة لتأخير جيش خالد فيما إذا استخدم المراكب التي كانت موجودة في (أمغيشيا) .

وبالفعل استخدم خالد المراكب التي غنمها ، وحمل عليها جنوده

---

(١) امغيشيا : موضع كان بالعراق أو كانت مصراً كالحيرة . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ١ ص «٢٥٤» . الناشر : دار صادر بيروت .

وفرسانه واتجـــه إلى (الحيرة) . وفي اثناء مسيره ، فوجيء بالمراكب ترتطم بقاع النهر وقد حجبت المياه عنه ، فعرف أن هـــذا من فعل الفرس ، فانطلق مع سرية من فرسانـــه وأغاروا على قناطر الفرات ، وقتلوا من يحميها من الفرس وكان من بينهم ابن « آزاذبه » ، فعادت المياه لتغمر مجرى النهر وتابعت المراكب التي عليهـا جيش المسلمين طريقهـا إلى (الحيرة) .

بلغ « آزاذبه » ما حل بفرسانه عند القناطر وقـــد قتلوا ومعهم ابنه ، فلم يجد بدأ من الفرار وقد يئس من وقف تقدم جيش المسلمين، ففر إلى (كتسفون) وكتب إلى « بهمن جاذويـه » يعلمـه بذلك . « فبهمن جاذويه » وقد التحق (بكتسفون) أصبح هو المسؤول عن الفرس في العراق بعد وفـاة الملك « أردشير » . ولم يبق في (الحيرة) سوى عرب النصارى يدافعون عنها .

لم يدخل خالد (الحيرة) من طريقها المعتاد وقد توقع مقاومة قوية من الفرس ، بل دخلها من مكان يدعى (الخورنق) يبعد ثلاثة أميـال شمال وشمال غرب (الحيرة)[1] .

أما وقد أصبح جند خالد في (الحيرة) لم يجدوا أثراً للفرس ، ولم يكن هنا سوى عرب النصارى الذين لاذوا واحتموا بقلاعهم الأربعـة الموجودة في (الحيرة)[2] .

حاصر فرسان جيش المسلمين هـذه القلاع ، وعرضوا على حاميتهـا الدخول في الإسلام أو دفع الجزية وإن رفضوا فليس أمامهم إلا القتال.

---

(١) سيف الله خـــالد بن الوليد : الجنرال أ. أكرم . ص « ٢٩٤ » الناشر مؤسسة الرسالة بيروت .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٣٦٠ » . الناشر دار المعارف بمصر .

واختار عرب النصارى القتال ، فشدد عليهم المسلمون الحصار ورشقوهم بالسهام والرماح ، ولم تمضِ فترة طويلة حتى طلب المدافعون عن القلاع المفاوضة مع المسلمين ، وخرج زعيم النصارى « عمرو بن عبد المسيح » ليرى شروط المسلمين .

التقى عمرو بخالد وعرض عليه خالد واحدة من ثلاث وقال له : اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقال عمرو : بل نعطيكم الجزية ، فقال خالد : تباً لكم ، ويحكم ! إن الكفر فلاة مَضلّة ، فأحمق العرب من سلكها[1] .

وهكذا صالح عرب النصارى خالد على دفع الجزية . وتم بذلك فتح (الحيرة) في ربيع الأول من العام الثاني عشر للهجرة ، كان القعقاع في جيش خالد يحارب ويجاهد كبقية الجند ، على انه أراد أن يخلد ذكرى تلك الأيام ، وهو الشاعر الملهم ، فأنشد في أيام (الحيرة) يقول :

سَقى الله قتلى بالفرات مُقيمةً
وأخرى بأثباج النّجاف الكوانفِ

فنحن وطئنا بالكواظم « هرمزا »
وبالثّنى قرنى « قارن » بالجوارف

ويومَ أحطنا بالقصور تتابعت
على (الحيرة) الروحاء إحدى المصّارفِ

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ ص « ٣٦٢ » الناشر دار المعارف بمصر .

حططناهم منها وقد كاد عرشهم

يميلُ بهم ، فِعل الجبان المخالف

رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا

غبوقَ المنايا حول تلك المحارف

صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا

إلى الريف من أرض العُريب المقانفِ[1]

بعد فتح (الحيرة) ، دانت جميع الأراضي ما بين نهري دجلة والفرات لسلطة المسلمين ، ولم يبق هناك ما يهدد وجودهم ، على أن خالداً لم يرد أن يتوقف عند هذا الحد من فتوحاته وانتصاراته ، ورانت عينه إلى الشمال نحو (الأنبار)[2] ، و(عين التمر)[3] . فهاتان المدينتان غير بعيدتين عن منطقة فتوحاته ، كما أنهما قد تهددانه بما فيهما من الفرس في المستقبل ، فمن الأفضل أن ينطلق اليهما بجيشه ، فيضمن بذلك سلامة الأراضي التي فتحها ومناعتها .

وفي هذه المرة لم يرافق القعقاع جيش المسلمين في فتوحاته ، فقد استخلفه خالد على مدينة (الحيرة) بعد فتحها[4] .

وهنا يلعب « القعقاع » دوراً جديداً في تاريخ الدولة الإسلامية ، فهو

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ ص « ٣٦٥ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد ، بينهما عشرة فراسخ . معجم البلدان لياقوت الحموي . ج ١ ص « ٢٥٧ » . الناشر : دار صادر بيروت .

(٣) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة . معجم البلدان لياقوت الحموي . ج ٤ ص « ١٧٦ » . الناشر : دار صادر بيروت .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص « ٣٧٣ » الناشر دار المعارف بمصر .

أمير على مدينة (الحيرة) ، يحكمها ويدير شؤونها طبقاً للشروط التي استسلم عليها أهلها للمسلمين .

ولو لم يكن « للقعقاع » الإمكانيات والصفات التي تؤهله لحكم هذه المدينة الكبيرة من مدن العراق ، فما كان خالد ليستخلفه عليها ، وقد أثبتت الحوادث التي جرت فيما بعد صواب رأي خالد في استخلافه « للقعقاع » على (الحيرة) .

على أن كتب التاريخ أغفلت هذه المرة أيضاً الحديث عن «القعقاع» خلال وجوده في (الحيرة) ، ولعل قصر الفترة التي بقي فيها هناك والتحاقه بجيش خالد في فتوحاته المتتابعة بعد ذلك ما يبرر هذا الإغفال .

انطلق خالد نحو (الأنبار وعين التمر) ، وتم له الإنتصار على الفرس وعرب النصارى المتجمعين في هاتين المدينتين[1] . وفي أثناء ذلك استنجد « عياض بن غنم » بخالد لمساعدته في قتاله لعرب النصارى المحتشدين في (دومة الجندل) . بعد أن عجز « عياض » عن اقتحام الحصن الذي يلوذ فيه عرب النصارى والانتصار عليهم .

وأسرع خالد لمساعدة « عياض » بعد أن كتب الله له ولجنوده النصر في (الأنبار وعين التمر) ، وسجل خالد نصراً جديداً له ولجيش المسلمين في (دومة الجندل) ، واقتحم بجنوده الحصن وفتحه بعد أن انتصر على جيش النصارى الذي كان يقوده « الجودي بن ربيعة » ، بالقرب من الحصن[2] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٣٧٣—٣٧٧» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) » » » » » » ٣٧٩ » » » » »

المعارك الأخيرة في العراق :

ما أن علم الفرس بأنباء انطلاق خالد إلى (دومة الجندل) حتى ظنوا بأن جيش المسلمين قد انتهى من فتوحـاته ومعاركه في العراق . فشجعهم ذلك وبعث فيهم النشاط والحمية ، بل وفكروا في استعادة الأراضي التي فتحها المسلمون وانتزاعها منهم !!!

فجهز « بهمن بن جاذويه » ، الملك الفارسي في (كتسفون) ، جيشين فارسيين ، الأول بقيادة القائد « روزبه » ، وأمره بالتحرك إلى منطقة (الحصيد)[١] .

والآخر بقيـادة القائد « زرمهر » ، وأمره بالتوجه إلى منطقة (الخنافس) . وكتب « بهمن » إلى عرب النصارى الذين كانوا لا يزالون على ولائهم للفرس لينضموا إلى الجيشين الفارسيين في قتالهما لجيش المسلمين .

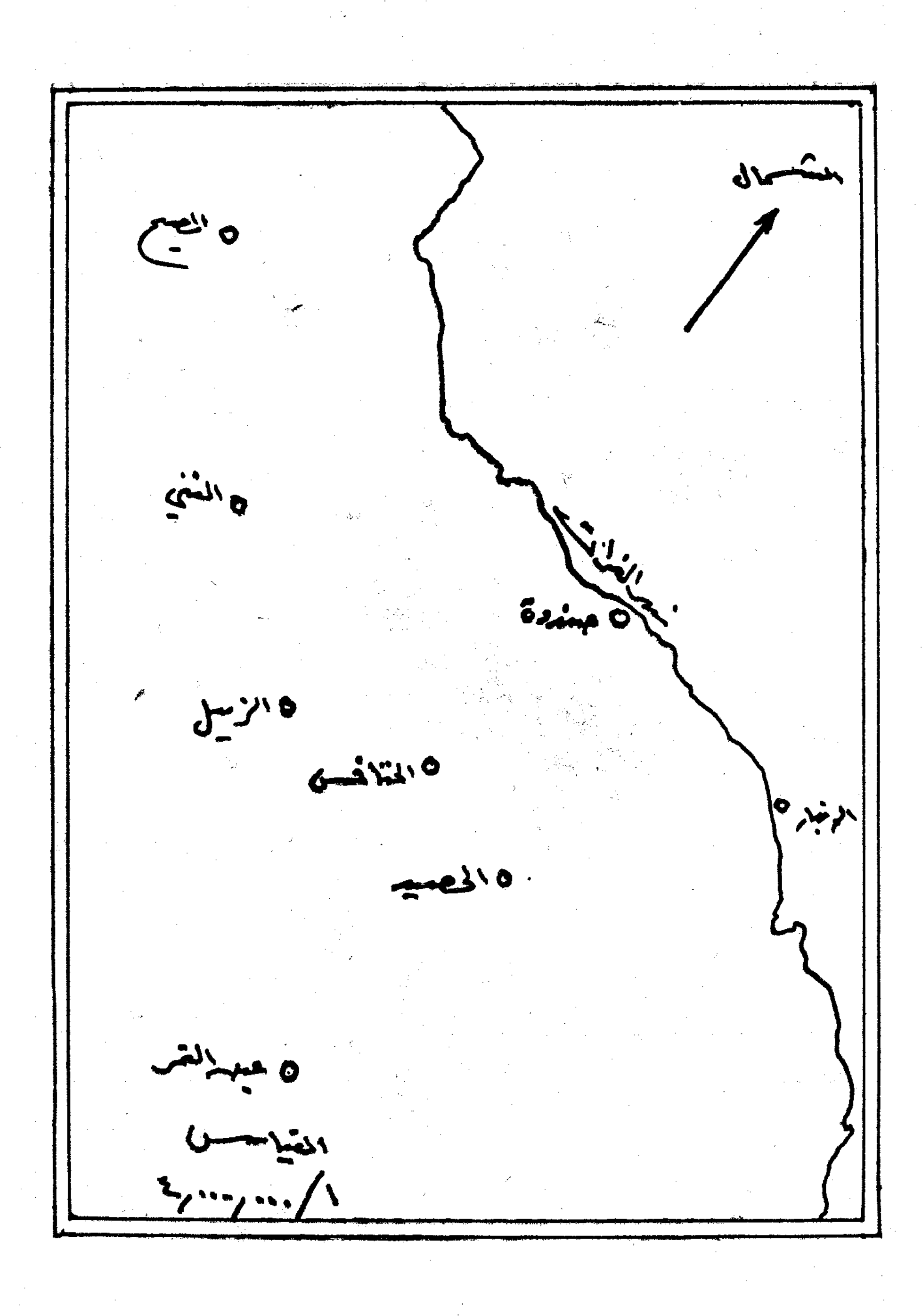
كان خالد قد خلف على مدينة (الأنبار) بعد أن فتحها « الزبرقان ابن بدر التميمي »، وعلم الزبرقان بخطة الفرس لمحاربة المسلمين ، فكتب إلى « القعقاع » في (الحـيرة) بذلك ، فأسرع « القعقاع » ليتخذ الإجراءات التي يقتضيها الموقف . فأرسل « أعبد بن فدكي » إلى (الحصيد)، و« عروة بن الجعد » إلى (الخنافس) وقال لهما : إن رأيتما مقدماً فأقدما[٢] أي أن يناوشا قوات الفرس وهي في طريقها إلى (الحصيد والخنافس)[٣]

---

(١) الحصيد : موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة . معجم البلدان . لياقوت الحموي جـ ٢ ص « ٢٦٦ » . الناشر : دار صادر بيروت .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٣٧٩ » ، الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) الخنافس : أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٢ ص « ٣٩١ » الناشر : دار صادر بيروت .


الشمال
القياس
١/٤،٠٠٠،٠٠٠

ويظلا على تماس مباشر معها ، ليعرقلا سرعة تحركها ، وليأتياه بأخبارها. وكان أن انطلقا إلى حيث وجهها القعقاع وبقيا على تماس مع قوات الفرس كما أمرهما.

وعاد خالد إلى (الحيرة) بعد انتصاره في (دومة الجندل) وفتح حصنها ، فأعلمه القعقاع بما جرى خلال غيبته من تحرك لقوات الفرس من (كتسفون) ، وتجهز عرب النصارى لمساندتهم.

فقرر خالد أن يلتقي بالفرس ، وأن يشتبك معهم قبل أن يلحق بهم عرب النصارى ويشكلوا جيشاً قوياً لمحاربته. فبعث بالقعقاع في لواء من جيش المسلمين إلى (الحصيد) لملاقاة الفرس هناك.

وبعث « بأبي ليلى بن فدكي » في لواء آخر من جيش المسلمين لمحاربة الفرس في (الخنافس).

وصل القعقاع إلى (الحصيد) ليجد الفرس بانتظاره وعلى رأسهم « روزبه » الذي ما أن علم بتقدم جيش المسلمين نحوه حتى طلب المعونة من « زرمهر » الذي كان موجوداً هو وجيشه في (الخنافس). والتحق « زرمهر » « بروزبه » ومعه بعض جنده ، وأمر على بقية جنده في (الخنافس) القائد « مهبوزان ».

التقى جيش المسلمين بقيادة القعقاع بالفرس في (الحصيد) ، وكان النصر المظفر لجيش المسلمين ، وقتل في هذه المعركة قائد الفرس « زرمهر » على يد فارسنا المقدام القعقاع ، أما « روزبه » فقد قتله « عصمة بن عبد الله ».

وأنشد القعقاع مفتخراً بقتله « لروزمهر » :

ألا أبلغا أسماء أنّ خليلها قضى وطراً من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا، في حصيد، جموعهم بهندية تفري فراخ الجماجم[1]

أما « أبو ليلى » فقد وصل إلى (الخنافس) ليجد الفرس بقيادة « مهبوزان » قد غادروها ولحقوا بالعرب النصارى في (المصيخ)[2] .

ووصلت الأخبار لخالد بهزيمة الفرس في (الحصيد) على يد القعقاع وجنده وبفرار جيشهم الآخر الذي كان موجوداً في (الخنافس) والتحاقه بالعرب النصارى في (المصيخ) ، فكتب إلى القعقاع وإلى « أبي ليلى » وواعدهم على ليلة معينة ووقت محدد ليغيروا ثلاثتهم ومن ثلاثة أمكنة مختلفة وفي وقت واحد على عرب النصارى والفرس المتجمعين في (المصيخ) ونجحت خطة خالد وكان التوقيت محكماً ودقيقاً ، فأغار المسلمون على (المصيخ) في ثلاثة ألوية ومن ثلاث جهات مختلفة ، وفاجأوا عرب النصارى والفرس وقد كانوا نياماً فأعملوا فيهم بالسيوف والرماح ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وما أشرقت الشمس ونشرت أشعتها على الأرض، حتى كانت (المصيخ) ساحة تجمعت فيها جثث القتلى من الفرس وعرب النصارى ، فقد كتب الله النصر للمسلمين ومكنهم من رقاب أعدائهم .

وارتجز القعقاع بعد تلك الموقعة هذه الأبيات :

سائل بنا يوم المصيّخ تغلباً ، وهل عالمٌ شيئاً وآخر جاهل
طرَقناهمُ فيه طروقاً فأصبحوا أحاديث في أفناء تلك القبائل

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٢ ص « ٢٦٧ » . الناشر : دار صادر بيروت .
(٢) المصيخ: وهي بين حوران والقلت معجم. البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص « ١٤٤ » . الناشر :دار صادر بيروت.

وفيهم إياد والنمور وكلهم   أصاخ لما قد عزّهم للزلازل[1]

ولكن المهمة لم تنجز بعد ، ففي (الثني)[2] و (الزميل)[3] كان لا يزال هناك عرب نصارى يحتشدون لقتال المسلمين . واتبع خالد في (الثني) و (الزميل) نفس الخطة التي اتبعها في (المصيخ) . فأغارت ألوية المسلمين الثلاثة ، الأول بقيادة خالد والثاني بقيادة القعقاع والثالث بقيادة « أبي ليلى » ، ومن ثلاثة أمكنة مختلفة وفي وقت واحد وليلة متفق عليها ، على (الثني) ونال عرب النصارى يومها ما نال أصحابهم في (المصيخ) ، فانتصار المسلمين كان مظفراً ولم تبزغ أشعة الفجر إلا وكان المسلمون قد قضوا على الكثيرين من عرب النصارى .

وكان نصيب المحتشدين في (الزميل) كنصيب البقية ، اغارة وقتل وتبديد شمل ، وبذلك قضي على كل مقاومة لعرب النصارى في العراق حدث هذا في شهر شعبان من السنة الحادية عشرة للهجرة .

ولكن خالداً لم يكتف بكل هذه الانتصارات ، وهو يعلم بأن هناك حامية للفرس عند (الفراض)[4] ، تقف في مواجهة الروم ، فقد كانت المنازعات والمناوشات بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية مستمرة ومتواصلة دائماً .

قرر خالد أن يغير على حامية الفرس في(الفراض)، ليكمل ما بدأه منذ أن اتجه بجيشه لفتح العراق بناء على أوامر الخليفة. على أنه هذه المرة لم

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص « ١٤٤ » . الناشر : دار صادر بيروت .

(٢) الثني : موضع بالجزيرة شرقي الرصافة . معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٢ ص « ٨٦ » الناشر دار صادر بيروت .

(٣) الزميل : موضع بالجزيرة شرقي الرصافة . معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٣ ص « ١٥١ » الناشر دار صادر بيروت .

(٤) الفراض : وهي على تخوم الشام والعراق على نهر الفرات .

يواجـه الفرس لوحدهم بـل كان معهم الروم ، وبعض من عرب النصارى ؟!!

وكانت (الفراض) تقع على نهر الفرات فاتجه اليها خالد بجيشه وفيه القعقاع ، وأقـام معسكره على الضفة الجنوبيـة للنهر بينما كان الفرس والروم وعرب النصارى يحتشدون في الضفة الشمالية .

وانتظر خالد أن يعبروا اليه ، وبقي في مكانه لم يبارحه فهو يريدهم أن يأتوا اليه ليتمكن منهم ويكون نصره عليهم مظفراً ، وكان أن عبروا اليه أخيراً وكتب الله النصر للمسلمين في هذه الموقعة أيضاً حيث ولت فلول الفرس والروم وعرب النصارى هاربة بعد أن قتل الكثيرين منهم[1] وأنشد القعقاع في ذلك اليوم :

لقينا بالفُراض جموع رومٍ ... وفرس غمّها طول السلام
أبدنا جمعهم لمـا التقينا ... وبيتنـا بجمـع بـني رزام
فما فتئت جنود السلم حتى ... رأينا القوم كالغنم السوام[2]

وبهذه المعارك الأخيرة لجيش المسلمين في العراق أنجز خالد المهمة التي بعثه فيها الخليفة ، ففتح معظم أراضي العراق ، وكان نصره هو وجنده مظفراً ، فقد بدد شمل الفرس وهزمهم في عدة معارك ، كما ألحق الهزيمة بجموع عرب النصارى ، وكسر جيش الروم ، فنال المجاهدون الثواب العظيم وقرت أعين أولئك الذين ظفروا بالشهادة .

وكان للقعقاع دوره الكبير في تلك المعارك ، وجهاده المظفر ، فسجل أروع آيات البطولة والمقدرة ، وبرهن بحق على أنه الفارس الذي لا يهزم جيش انضم إلى صفوفه .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى . جـ ٣ ص « ٣٨٤ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) خالد بن الوليد : عمر رضا كحالة ص « ١٢٤ » . المكتبة العربية بدمشق .

فتوح الشام

لم تقتصر الفتوحات التي تمت في حياة الخليفة أبو بكر الصديق على أرض العراق فقط ، بل إن هذا الصحابي الجليل بعث البعوث إلى أرض الشام ، وسير اليها الجيوش ، ليرفع رايـة الإسلام فوق تلك الأرض ، وليجعل شمس الهداية تشرق في سمائها ، فتبدد سحب الظلام والجهل .

وكان لفارسنا المقدام القعقاع بن عمرو ، دوره الكبير ونصيبه الأوفى في هذه الفتوح ، وستبين الصفحات القادمة من هذا الكتاب دوره هذا .

كانت الحملة العسكرية الأولى إلى بلاد الشام في زمن الخليفة الأول ، بقيادة « خالد بن سعيد » ، ولم يكن الهدف من هذه الحملة قتال الروم بشكل فعلي بقدر ما كان هدفها مناوشة قوات الروم على تخوم أرض الشام . أمر أبو بكر « خالد بن سعيد » أن ينزل مع جنـده في مكان يقال له (تيماء)[1] ، وأمره ألا يغادر المكان إلا بإذنه ، وأن يكتب إلى القبائل العربية المسلمة يرغبها في الجهاد وقتال الروم ، وأمره بعد ذلك ألا يحارب إلا من يحاربه [2] .

---

(١) تيماء : مكان في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، على طريق الحاج من الشام إلى مكة . معجـم البلدان : لياقوت الحموي جـ ٢ ص (٦٧) . فتوح البلدان : للبلاذري ص (٧٠٢) .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٣ ص (٣٨٨) . الناشر : دار المعارف بمصر.

فنزل « خالد بن سعيد » بقواته التي خرج معها من المدينة في (تيماء) وأرسل إلى القبائل العربية المسلمة المقيمة بالقرب منه يرغبها بالجهاد ، فكان أن لحق به العديد من أفراد تلك القبائل ، كما لحق بقواته « عكرمة بن أبي جهل » و « ذو الكلاع » ومعهما بعض الجند أرسلهم الخليفة من المدينة معززاً قوات « خالد بن سعيد » في (تيماء) .

وعلم الروم بتجمع قوات المسلمين ، فاستنفروا قواتهم ، وانضمت اليهم بعض القبائل العربية الموالية لهم . فكتب « خالد بن سعيد » إلى الخليفة بذلك طالباً الاذن منه ليقاتل الروم قبل أن يستكملوا جموعهم، فأرسل له الخليفة : أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله[1] .

فسار « خالد بن سعيد » بقواته نحو تجمعات الروم والقبائل العربية النصرانية ، وحين رأوه يتقدم نحوهم انفضوا وتفرقوا وهربوا من أمامه فأغراه ذلك وعزم على اللحاق بهم وقتالهم فكتب إلى الخليفة مجدداً يطلب الإذن في ذلك ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وقال له محذراً : أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك[2] .

كان الخليفة يعلم بأن الروم ليسوا بهذا الضعف والتخاذل ، وخاف أن يغري تراجعهم خالد فيتوغل في أرض الشام التي تعج بقواتهم ، فيقع بذلك هو وجنده فريسة سهلة لقوات الروم ، فحذره من مغبة التوغل في أرض الشام .

وكان على رأس جموع الروم يومها القائد « باهان » ، الذي علم بأنه لن يتمكن من النيل من قوات المسلمين ما دامت هذه القوات بعيدة

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر المجلدة الأولى ص « ٤٥١ ». الناشر : المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٣٨٩» . تاريخ مدينة لابن عساكر المجلدة الأولى ص «٤٥١» . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

عن تجمعات الروم . وفكر بأن يجر هذه القوات ويغريها بالتوغل في أرض الشام ، فيوقعها في الفخ الذي نصبه لها ، وكان هو وراء انسحاب قوات الروم وتجمعات القبائل العربية الموالية لهم من أمام جيش « خالد بن سعيد » ، في محاولة لاغراء خالد بالتوغل مع جنده في أرض الشام ، ونجح في ذلك بالفعل . فقد توغل « خالد بن سعيد » بجنده في أرض الشام مخالفاً أوامر الخليفة ، ولما وصل إلى مكان يقال له (مرج الصفر)[1] ، أحاطت به قوات الروم من جميع الجهات فلم يتمالك خالد نفسه ففر من أرض المعركة بعد أن بلغه مقتل ابنه الذي كان بين جنده على أيد جند الروم . ولولا وجود « عكرمة بن أبي جهل » في جيش المسلمين يومها لألحق الروم بالمسلمين شر هزيمة ، إلا أن عكرمة استطاع بشجاعته ومهارته وحسن قيادته أن ينجو بجيش المسلمين قبل أن ينال منهم الروم ما أرادوا . على أن هذه الحملة والنتيجة التي انتهت اليها لم تمنع الخليفة من تجهيز المزيد من الجيوش لفتح أرض الشام .

ففي العام نفسه – العام الثالث عشر للهجرة – وبعد أن عاد الخليفة من الحج السنوي ، أمر بتجهيز أربع جيوش قادرة على محاربة الروم ، ووضع على رأسها خيرة قواد المسلمين وشجعانهم ، وحدد لهذه الجيوش وجهتها والطريق الذي ستسلكه . وكانت هذه الجيوش :

١ – جيش بقيادة عمرو بن العاص . وهدفه فلسطين . والطريق الذي سيسلكه هو طريق (المعرقة)[2] .

---

(١) مرج الصفر : جنوب دمشق في منطقة حوران – فتوح البلدان للبلاذري ص «٧٧٨» تاريخ الطبري ج ٣ ص «٣٨٩» الناشر : دار المعارف بمصر.

(٢) المعرقة : وهي الطريق التي كانت قريش تسلكها إذا أرادت الشام وهي طريق تأخذ على ساحل البحر ، وفيها سلكت عير قريش حتى كانت موقعة بدر . معجم البلدان . ياقوت الحموي ج ٥ ص « ١٥٥ » الناشر دار صادر بيروت .

٢ – جيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح . وهدفه مدينة حمص . والطريق الذي سيسلكه طريق (تبوك) .

٣ – جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان . وهدفه مدينة دمشق . والطريق الذي سيسلكه طريق (تبوك) .

٤ – جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة وهدفه الاردن . والطريق الذي سيسلكه طريق (تبوك)[١].

وكانت وصية الخليفة لهذه القوات قبل مغادرتها للمدينة : « أوصيكم بتقوى الله ، اغزوا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه . ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تجبنوا ، ولا تفسدوا في الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون . فإذا لقيتم العدو من المشركين – إن شاء الله – فادعوهم إلى ثلاث خصال فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم . ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم . ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين ، فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين ، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية ، فإن هم فعلوا فاقبلوا وكفوا عنهم . وإن هم أبوا فاستعينوا الله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله . ولا تعزقن نخلاً ولا تحرقنها ، ولا تعقروا بهيمة ، ولا تقطعوا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة ، ولاتقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء ، وستجدون أقواماً حبسوا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص «٣٨٧» الناشر دار المعارف بمدمشق .
تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر المجلدة الأولى ص «٤٤٩» الناشر مجمع اللغة العربية بدمشق .

أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان في أوساط رؤوسهم أفحاصاً[1] ، فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله[2] .

أية وصية تلك التي أوصى بها أبو بكر قادة جيوش المسلمين !! إنها شريعة كاملة وبيان مفصل وشرح واف للمؤمنين يهتدون به في قتالهم ويتبعونه مع أعدائهم ، فلا يغدروا ولا يخونوا ولا يقاتلوا إلا بعد أن يستنفذوا كل الأساليب والطرق التي نطلق عليها في عصرنا هذا اسم (الدبلوماسية) . وحق للمؤرخين بعد ذلك بأن يصفوا المسلمين في فتوحاتهم ويقولوا عنهم (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) .

وغادرت جيوش المسلمين المدينة متوجهة إلى أرض الشام ، وكانت المسافة بين كل جيش وآخر مسيرة يوم واحد . وانطلق جيش « يزيد ابن أبي سفيان » في المقدمة ، ليلتقي به بعد ذلك جيش « عمرو بن العاص » في منطقة يقال لها (داثن)[3] . وليجدا في انتظارهما جموع الروم التي عبأت قواتها لاعتراض طريق المسلمين .

ودارت معركة ضارية بين المسلمين والروم ، كتب للمسلمين فيها النصر بإذن الله ، وظلت بعدها طلائع جيش المسلمين تلاحق فلول جيش الروم حتى مدينة (غزة) ملحقة بها الخسائر الفادحة ومنزلة بين صفوفها القتل والتفريق .

---

(١) المقصود بالذين اتخذوا الشيطان في أوساط رؤوسهم أفحاصاً : الشمامسة . مفردها الشماس . وهو دون القسيس (والكلمة من السريانية معناها الخادم) والشمامسة عندما يلقون القتال يقاتلون في حين أن الرهبان (أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع) فإنهم لا يقاتلون .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر المجلدة الأولى ص « ٤٥٥ - ٤٥٦ » الناشر مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٣) داثن : تبعد عن غزة مسافة ١٢ كم ، وقد اندثرت هذه المدينة الآن .

وفي الوقت نفسه كان جيشا أبو عبيدة وشرحبيل قد وصلا إلى المنطقة الواقعة بين مدينة (البصرى) و(الجابية)[1] . في حين تابع جيش « يزيد » طريقه وعسكر بالقرب منهما ، بينما بقي « عكرمة » مع جيشه في المكان الذي اصطدم فيه مع الروم .

ووصلت أنباء معارك المسلمين الأولى إلى الخليفة ، وعلم بحشود الروم الكثيفة في أرض الشام ، فالأمبراطور الروماني « هرقل » انتقل من مدينة (انطاكية) إلى مدينة (حمص) ليحشد جموع الروم ويعدهم لقتال المسلمين الذين دخلوا إلى أرض الشام .

وفكر الخليفة بأن المسلمين في أرض الشام بحاجة إلى مزيد من المدد وإلى قائد يقودهم إلى النصر ، ومن كان له غير خالد بن الوليد لهذه المهمة ؟!! وقال الخليفة لأصحابه حين فكر بنقل خالد من العراق إلى أرض الشام وتسليمه قيادة جيوش المسلمين فيها : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد[2] .

وكتب له في العراق : أما بعد فدع العراق وخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم أمض مخففاً في أهل القوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من

---

(١) الجابية : وهي قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران ، إذا وقف الانسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له ، وتظهر من نوى أيضاً . بقربها تل يسمى تل الجابية . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٢ ص « ٩١ » . الناشر : دار صادر بيروت .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص« ٤٦٣ » الناشر : المجمع العلمي العربي بدمشق .

المسلمين . فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله[1] .

المسير إلى الشام :

رأينا كيف تمكن خالد بن الوليـــد من فتح الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات بعد عدة معارك انتصر فيها المسلمون على الفرس ، وكيف أنه تمكن من القضاء على مقاومة العرب النصارى في تلك المناطق .

على أن واحداً مثل خالداً لم يكن ليستكين إلى الهدوء والراحـــة والاستقرار ، فهو رجل حرب قد خلق للقتال والفتوحات والانتصارات ، وكان الخليفة أبو بكر يعلم تلك الخصال في خالد ويعرف له شجاعته ومهارته في القتال وحسن تدبيرة وخططه ، ويعلم أنه يستطيع أن يعتمد عليه في الظروف الصعبة ، فكان أن كتب له يأمره بالمسير إلى الشام .

وتجهز خالد للمسير وأوعز لنصف جيشه الذي حارب معه في العراق للاستعداد للرحيل إلى أرض الشام ، وأبقى نصف الجيش الآخر تحت امرة « المثنى بن حارثة » في العراق كما أمره الخليفة .

وانصب اهتمام خالد الآن على الطريق الذي سيسلكه إلى الشام ، فالوقت قصير ، وجيوش المسلمين في الشام بانتظاره وأوامر الخليفة صريحة بسرعة التحرك إلى الشام .

جمع خالد أصحابــه واستشارهم في الطريق الذي سيسلكه الجيش ، وأوضح لهم الغاية من سرعة التحرك ، وعدم التأخر باللحاق باخوانهم في

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص «٤٧٠» . النـــاشر : المجمع العلمي العربي بدمشق .

الشام ورغبته في عدم الاصطدام بحاميات الروم في طريقه وقال لهم : كيف لي بطريق أخرج منه من وراء جموع الروم فإني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين . فأجابه أصحابه : لا نعرف إلا طريقاً لا تحمل الجيوش ، يأخذه الفذ والراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين[1] .

وكان الطريق الذي أشاروا به عليه لا يمكن أن تسلكه الجيوش لندرة المياه فيه ولصعوبة اجتيازه ، فالصحراء تمتد من كل النواحي ومن الصعب الخروج منه بسلام . إلا أن خالداً عزم على المضي فيه ، وعرض عليه أحد جنده وهو « رافع بن عميرة » أن يكون دليله في هذا الطريق والتفت خالد إلى أصحابه وقال لهم مقوياً من معنوياتهم ورافعاً من همتهم : لا يهولنكم ، فإنا عباد الله وفي سبيل الله وعلى طاعة خليفة رسول الله[2] .

وارتحل جيش المسلمين بقيادة خالد إلى الشام ، ومعه فارسنا القعقاع ليشارك في فتوحات المسلمين في أرض الشام ، وليسجل المزيد من آيات البطولة والشجاعة والمقدرة .

وانطلق خالد بجيشه ودليله رافع في الطريق الصعب لاحقاً باخوانه في أرض الشام متجنباً ما أمكنه الاصطدام بحاميات الروم في طريقه .

ومر جيش المسلمين في طريقه (بعين التمر) ، فحارب خالد أهلها وانتصر عليهم وغنم منهم ثم تابع طريقه إلى (قراقر) عبر (صندوة) و (المصيخ) . وكانت المرحلة التي تلي (قراقر) هي المرحلة الصعبة

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص « ٤٦٤ » الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص « ٤٦٥ » الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

والخطرة في المسير ، فالمنطقة بين (قراقر) و (سوى) عبارة عن منطقة صحراوية تندر فيها المياه ، ولا يسلكها إلا من يخاطر بحياته ولا يبالي ان كتبت له النجاة بعدها أم لا . وكان تصميم خالد على اجتيار هذه المنطقة تصميماً شديداً وعزمه على الخروج منها عزماً قوياً لا ضعف فيه ، فانطلق مع جنده يعبرون تلك المنطقة ودليلهم « رافع بن عميرة » .

طلب رافع من أصحابه في اثناء سيرهم في تلك المنطقة أن يبحثوا عن شجرة من عوسج تشبه قعدة الرجل ، ونشط المسلمون في التفتيش عن تلك الشجرة وكلما كانت أعينهم ترتد خائبة مفتقدة تلك الشجرة كانت مخاوفهم بالهلاك عطشاً تزداد وتكثر ، إلى أن وجدوها أخيراً وكانت قد قطعت ولم يبق منها سوى بقية يستدل عليها ، وعندها طلب رافع من المسلمين أن يحفروا في أصل هذه الشجرة ، ولما فعلوا تدفقت المياه بين أيديهم عذبة صافية ، فانكبوا ينهلون منها ويروون عطشهم ويسقون خيلهم وابلهم ويملؤون أوعيتهم ، والتفت رافع عندها إلى خالد ليعترف له بما كتمه عنه طوال الرحلة وقال له : والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة ، وردته مع أبي وأنا غلام[1] .

وأنشد شاعر من المسلمين يومها بعد أن ظفر المسلمون بالماء :

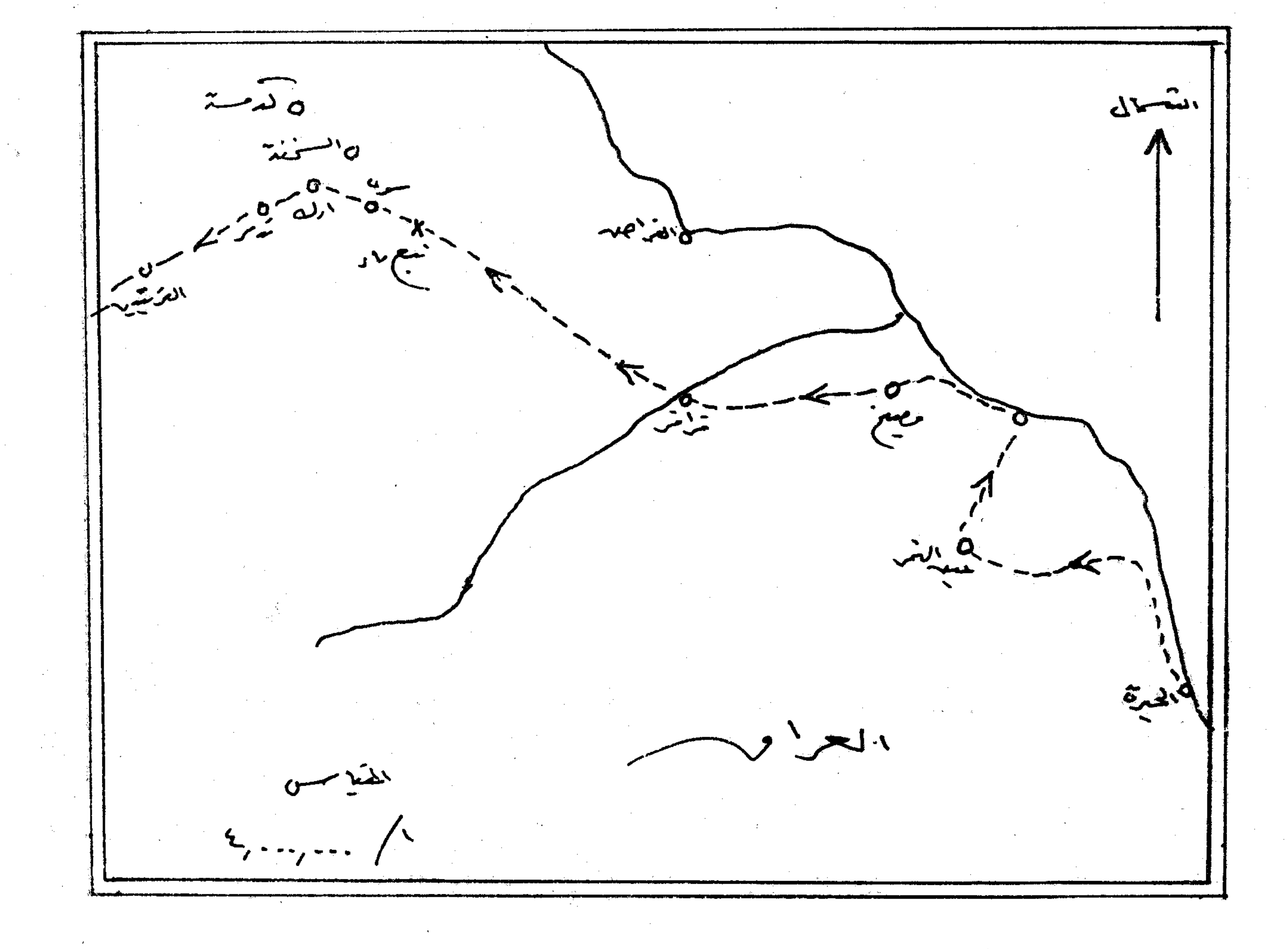
لله عينا رافع أنى اهتدى ... فوز من قرار إلى سوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك إنسي يرى[2]

وقد أنشد القعقاع بعد انتصار المسلمين على أهل عين تمر :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٣ ص«٤١٦». الناشر دار المعارف بمصر.

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٣ ص «٤١٦» الناشر دار المعارف بمصر.



الشمال
العراق
الحيرة
عين التمر
الفراض
تدمر
السخنة
أرك
سوى
المقياس

قطعنا أباليس البـلاد بخيلنا ... نريد سُوَى من آبدات قُراقر

فلمّـا صبّحنا بالمصيّخ أهله ... وطار إباري كالطيور النوافر

أفاقت به بَهْراءُ ثم تجاسرت ... بنا العيس نحو الأعجميّ القُراقر [1]

المعارك الأولى لجيش خالد بن الوليد في أرض الشام :

بعد أن قطع خالد بجيشه المرحلة الصعبـة والخطيرة من مسيره إلى أرض الشام ، أغار على قرية (سوى)[2] وقضى على كل مقاومة فيها وتابع طريقه إلى مدينة (أرك)[3] ولما وصلها وجد أهلها من عرب النصارى وبعض الروم قد تحصنوا في حصنها ، فحاصر جيش المسلمين المدينة ، وعلم أهلهـا بأن خالداً هو قائد المسلمين وأن الجيش الذي يحاصر مدينتهم هو الجيش الذي هزم الفرس في أرض العراق ، فسرعان ما استسلموا بعدها للمسلمين بعد أن تيقنوا بأنهم غير قادرين على رد الجيش عن مدينتهم !!!

وتابع جيش المسلمين طريقه بعـد ذلك ليصل إلى (تدمر) ويجـد أهلها قد لاذوا بحصنها ، وبـدأ أهل (تدمر) مفاوضاتهـم مع خالد ووافقوا في النهاية على دفع الجزية وبقاء حصنهم مفتوحاً لجند المسلمين يؤون اليه متى شاؤوا ، ويتزودون بطعامهم وشرابهم .

وغادر المسلمون تدمر بعد ذلك ووصلوا إلى (القريتين) ، وقضوا

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص «١٤٤» . الناشر : دار صادر بيروت .

(٢) سوى : اسم ماء لهراء من ناحية السماوه ، والسماوه ماء بالبادية وهي التي بين الكوفـة والشام .

معجم البلدان . لياقوت الحموي . ج ٣ ص « ٢٤٥/٢٧١ ». الناشر : دار صادر بيروت .

(٣) أرك : مدينة صغيرة في طرف برية حلب ، قرب تدمر ، وهي ذات نخل وزيتون .

معجم البلدان . لياقوت الحموي ، ج ١ ص « ١٥٣ » ، الناشر : دار صادر بيروت .

على المقاومة التي أبداها أهلها وانتصروا عليهم وغنموا منهم . ووقعت بعض المصادمات بين جيش المسلمين وعرب النصارى في الطريق بين (القريتين) ومدينة مرج (مرج راهط) عاصمة الغساسنة ، حيث أغار المسلمون على تلك المدينة بعد أن انتصروا على عرب النصارى الذين صادفوهم في طريقهم . أما في (مرج راهط) فقد أخذ المسلمون الغساسنة على حين غرة وتمكنوا منهم وأعملوا فيهم بالسيوف والرماح ولم يفق الغساسنة من هول الصدمة إلا والمسلمون قد ألحقوا بهم الهزيمة واستولوا على الغنائم وشردوا جموعهم .

ووصل جيش المسلمين بعد هذه المعارك الأولى إلى المنطقة التي يعسكر فيها جيش أبي عبيدة وجيش شرحبيل وجيش يزيد وهي المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة (البصرى) .

فتح مدينة البصرى :

قبل وصول جيش خالد ، حاول أحد جيوش المسلمين وكان بقيادة « شرحبيل بن حسنة » ، أن يفتح مدينة (البصري) واصطدم جيش شرحبيل بقوات الروم التي كانت تدافع عن (البصرى) ، خارج أبواب المدينة حيث خرج الروم للقاء المسلمين ، وكانت قوات الروم تفوق قوات المسلمين عدداً وعدة مما جعل الروم يصمدون تحت ضربات المسلمين بل إن الروم أخذوا زمام المبادرة وكادوا أن يلحقوا الهزيمة بالمسلمين ، وصمد المسلمون واستبسلوا في الدفاع عن مواقعهم وكان ضغط الروم يزداد تدريجياً ، وفي الوقت المناسب لاحت طلائع فرسان يسرعون نحو أرض المعركة شاهرين سيوفهم مصوبين رماحهم يعج الغبار حولهم ، ولم يطل الوقت ليتبين المسلمون والروم معاً وليعرفوا بأن أولئك الفرسان المسرعين نحوهم ليسوا إلا خيالة خالد الذي وصل في الوقت المناسب .

وعندما رأى الروم ذلك أسرعوا بالتراجع إلى المدينة ولاذوا بحصنها وأغلقوا أبوابها دون جند المسلمين .

وفرض المسلمون بعدها الحصار على مدينة (البصرى) ولم تمض بضعة أيام حتى استسلمت حامية الروم المدافعة عن المدينة للمسلمين ، بعد أن وافقوا على دفع الجزية والكف عن قتال المسلمين .

وبذلك كانت مدينة (البصرى) أول مدينة مهمة في أرض الشام يتم فتحها على يد المسلمين .

وبعد فتح مدينة (البصرى) أنشد القعقاع ، متحدثاً كيف سقطت معاقل الروم أمام زحف جيش المسلمين واحداً إثر آخر فقال :

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع	لغسان أنفاً فوق تلك المفاخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به	سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة	فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت	بنا العيس في اليرموك جمع العشائر [1]

معركة أجنادين [2] :

كانت استعدادات الروم لوقف زحف جيوس المسلمين تجري في منطقة (أجنادين) . فأمبرطور الروم « هرقل » بعد أن انتقل من (انطاكية) إلى مدينة (حمص) ، حشد قوات الروم في منطقة (أجنادين) في محاولة لصد المسلمين بعد أن ألحقوا بحاميات الروم عدة هزائم وتم لهم فتح

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٥ ص « ٤٣٤ » . الناشر : دار صادر بيروت .
(٢) أجنادين : موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ١ ص « ١٠٣ » الناشر دار صادر بيروت .

مدينة (بصرى) ، وتجمع لهرقل مائة ألف مقاتل روماني في (أجنادين) وكان على رأسهم القائد « وردان » ويعاونه القائد « القبقلاز » .

أما جيوش المسلمين فقد أصبحت تحت إمرة خالد بن الوليد بعد أن لحق خالد وجيشه بأرض الشام ، ووصلت الأخبار للمسلمين بتجمع الروم في منطقة (أجنادين) ، فتحركت جيوش المسلمين إلى تلك المنطقة سالكة الطريق شمالي البحر الميت لتلتقي هناك بجيش « عمرو بن العاص » الذي غادر (وادي عربة) لاحقاً بجيوش المسلمين .

تجمع المسلمون الذين قدر عددهم باثنين وثلاثين الف مجاهد في معسكر غير بعيد عن معسكر قوات الروم في منطقة (أجنادين) .

وبدأت الاستعدادات الأولى للمعركة وأمر « وردان » رماة الروم بالتقدم إلى أمام الجيش الروماني وبدأوا يرمون المسلمين بالنبال وأصابوا الكثيرين منهم ، وشعر خالد بأنه سيصاب الكثير من المسلمين إذا استمر الروم برمي النبال ، لذلك أمر « ضرار بن الأزور » أن يخرج ليتحدى فرسان الروم بالمبارزة ، فخرج ضرار واستجاب لتحديه أحد فرسان الروم وسرعان ما قتله ضرار ، ليقف متحدياً فرسان الروم من جديد ، وفي هذه المرة خرج له عشرة فرسان ، فلحق بضرار من بين صفوف المسلمين بعض المجاهدين ليكفوه فرسان الروم الذين خرجوا لقتاله . ولم تمض فترة طويلة حتى تمكن المسلمون من القضاء على فرسان الروم ، وانتهى بتلك المبارزات اليوم الأول من أيام المعركة .

كان قائد الروم « وردان » يفكر بخديعة ينال فيها من خالد ، فمقتل قائد جيوش المسلمين لا بد سيضعف من عزيمتهم ، وسيعمل على تشتيتهم ، لذلك وضع خطة تتلخص في إيهام خالد بأنه يريد أن يتفاوض معه على شروط الصلح في الوقت الذي يوعز فيه لعشرة من فرسانه

بالاختباء خلف إحدى التلال القريبة من أرض المعركة وعند الاشارة المتفق عليها يخرج أولئك الفرسان من مخبأهم فينقضوا على خالد ويقتلوه فيفت ذلك في عضد المسلمين ويؤثر على معنوياتهم مما يمكن الروم من الحاق الهزيمة بهم .

واستدعى « وردان » أحد العرب النصارى الموالين له واسمه « داود » وشرح له خطته وطلب منه أن يذهب لمعسكر المسلمين ويقابل خالد ويقول له إن قائد الروم يريد أن يتفاوض معه في صباح اليوم التالي على شروط الصلح .

والتقى « داود » بخالد في معسكر المسلمين ونقل له أقوال « وردان» ولكن « داود » ما إن غادر معسكر المسلمين حتى عاد اليه مسرعاً ، ليعترف لخالد بمكيدة « وردان » بعد أن خالجه شعور بأن المسلمين لا بد أن ينتصروا على الروم وفي ذلك قضاء عليه وعلى أسرته ، لذلك اعترف لخالد بكل شيء مقابل وعد خالد بحمايته هو وأسرته ، فوعده خالد خيراً وطلب منه أن يعود لمعسكر الروم ويبلغ « وردان » بأنه قد أدى مهمته .

وأرسل خالد وراء « ضرار » وأطلعه على مكيدة « وردان » واوعز اليه بأن يخرج مع عشرة من فرسان المسلمين لمهاجمة فرسان الروم المختبئين وراء تلك التلة . وفي اليوم التالي خرج خالد لمقابلة « وردان » . ولم يطل الوقت ليطلق « وردان » الاشارة المتفق عليها ، فخرج من خلف إحدى التلال عشرة فرسان ، يتجهون بسرعة نحو القائدين ، واندهش خالد وتساءل عما إذا كان ضرار لم ينجح هو واخوانه بالقضاء على فرسان الروم !!.

ولكن سرعان ما تبين لخالد و« وردان » بأن أولئك الفرسان ليسوا سوى فرسان المسلمين على رأسهم ضرار .. وأذهل « وردان » وعرف بأن المكيدة انقلبت عليه وأن « داود » خانه ، وأمر خالد ضرار

بقتل « وردان » وسرعان مـا هوى ضرار بسيفه على عنق « وردان » ففصل رأسه عن جسده .

ووجد خالد بعدها أن الفرصة سانحة لشن هجوم عام ، فأمر المسلمين بالهجوم ، وبدأ عندها القتال . كانت المعركة حامية الوطيس ، والقتـال عنيفاً والجثث تسقط من كلا الطرفين . وحمل المسلمون حملات متتالية على الروم وازداد ضغطهم عليهم ، واستطاعوا أن ينفذوا أخيراً مـن بين صفوفهم ، ووصلت أولى طلائع جيش المسلمين إلى معسكر الروم ليجدوا « القبقلاز » الذي تسلم قيادة جيش الروم بعد مقتل « وردان » يقف بين بين فرسانه فاشتبك معهـم المسلمون ، وتمكنوا أخيراً من النيل من « القبقلاز » فقتلوه[1] . ففت ذلك في عضد جيش الروم وأثر فيهم واستمر ضغط المسلمين على الروم فتراجعوا وسرعان ما ولوا الأدبار ، فلحق بهم المسلمون ، وقتلوا الكثيرين منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار .

وبذلك كتب الله النصر للمسلمين في هذه المعركة التي جرت في جمادى الأول من السنة الثالثة عشرة للهجرة النبوية الشريفة[2].

وفاة أبي بكر الصديق :

في شهر جمادى الآخر من العام الثالث عشر للهجرة ، توفي أول خليفة للمسلمين أبو بكر الصديق[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٤١٨ » . الناشر : دار المعارف بمصر.

(٢) « « « : « « « « ٤١٨ » « « « «

تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص « ٤٨٧ – ٤٧٩ » . الناشر المجمع العلمي بدمشق .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ ٣ ص « ٤١٩ » . الناشر دار المعارف بمصر .

لقد كانت حياة هذا الصحابي الجليل حافلة بالجهاد في سبيل الله ، والسعي لنصرة دينه ، والنضال لتثبيت أركان هذا الدين الحنيف .

لقد قضى على حركة الارتداد التي عصفت بالجزيرة العربية في عهده ، وعادت القبائل العربية طائعة إلى دين الإسلام مقرة في النهاية بتعاليمه ومقيمة لأركانه .

وامتدت حدود الدولة الإسلامية في حياته لتشمل الأراضي ما بين دجلة والفرات في العراق ، وجزء من أرض الشام . وكانت آخر انتصارات المسلمين في عهده انتصارهم على الروم في معركة (أجنادين) كما مر بنا .

ولم تتوقف فتوحات المسلمين بعد وفاة أبي بكر ، بل تتابعت في حياة الخليفة الثاني للمسلمين ، عمر بن الخطاب .

والفصول القادمة من هذا الكتاب ستبين لنا ذلك ، وستوضح لنا دور القعقاع في هذه الفتوحات ، وما تم على يديه من مآثر وبطولات، وما بذله في سبيل ابقاء راية الإسلام مرفوعة خفاقة عالية أبداً .

الفصل الرابع

في خلافة عمر بن الخطاب

لما أحس أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) بدنو أجله ، ومرض مرض الموت ، فكر بالرجل الذي سيخلفه بعد موته . فصور الفتنة التي تحركت في (سقيفة بني ساعدة) بعد وفاة الرسول ﷺ ، واختلاف الأنصار والمهاجرين حول شخص خليفة الرسول ﷺ ، وما كان سيسببه هذا الاختلاف من تشيت وفرقة ..

هذه الصور كانت لا تزال ماثلة في خاطره وهو لا يريد لها أن تتكرر من جديد ، فليتحمل مسؤولية اختيار خليفة له قبل وفاته ، ليتحمل هذه المسؤولية أمام الله – عز وجل - وأمام المسلمين ، وفي ذلك درء لكل فتنة أو اختلاف أو فرقة قد تعصف بأركان الدولة الاسلامية بعد وفاته .

وُقر قرار أبي بكر أخيراً على استخلاف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . وبعث أبو بكر وراء « عبد الرحمن بن عوف » و « عثمان بن عفان»

كل على حده ، يسأله رأيه في الخليفة الذي اختاره للمسلمين بعد وفاته ، بعث وراءهما ليسألهما رأيهما بعمر بن الخطاب[1] .

لماذا اهتم أبو بكر بسؤال « عبد الرحمن بن عوف » ، و « عثمان بن عفان» ومعرفة رأيهما ؟!!

لقد كان هذان الصحابيان الجليلان من العشرة المبشرين بالجنة[2] ، ومن أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد توفي الرسول وهو راض عنهما ، فهما خير من يستشار في هذا الموقف .

وافق كل من « عبد الرحمن بن عوف » و « عثمان بن عفان » أبا بكر على اختياره ، ومن كان للمسلمين بأفضل من « عمر بن الخطاب ».

في هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة الإسلامية ، ومد حدودها ، ونشر تعاليم الدين الحنيف بفضل الجيوش التي تنطلق شرقاً وغرباً ، لفتح الأراضي التي كانت لا تزال تعاني من الجهل والضلال والكفر .

من كان للمسلمين بأفضل من عمر بن الخطاب الذي قال فيه الرسول ﷺ : لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحدَّثون (مُلهمون) ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر[3] .

ودعا أبو بكر « عثمان بن عفان » ليكتب عهداً إلى المسلمين باستخلاف « عمر بن الخطاب » عليهم .

جلس عثمان إلى أبي بكر ، فقال له أبو بكر : اكتب ، فكتب عثمان :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٤٢٨ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) العشرة المبشرون بالجنة هم : ١ ـ أبو بكر الصديق . ٢ ـ عمر بن الخطاب . ٣ ـ عثمان ابن عفان . ٤ ـ علي بن أبي طالب . ٥ ـ أبو عبيدة بن الجراح . ٦ ـ عبد الرحمن بن عوف . ٧ ـ سعد بن أبي وقاص . ٨ ـ الزبير بن العوام . ٩ ـ طلحة بن عبد الله . ١٠ سعيد بن زيد ابن نفيل .

(٣) تاريخ الخلفاء : للسيوطي . ص «١١٧» الناشر دار المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين ، أما بعد . وأغمي على أبي بكر . فخاف عثمان أن يكون أبو بكر قد فارق الحياة ، فأسرع ليكمل العهد وكتب : أما بعد فإني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلكم خيراً منه .

ولكن أبا بكر أفاق من اغمائه ، وسأل عثمان : اقرأ عليّ ، فقرأ عثمان ما كتبه ، فكبر أبو بكر وقال لعثمان : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي ! قال عثمان : نعم . فقال أبو بكر : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله[1] .

وانتقل أبو بكر إلى جوار ربه ، فخرج عثمان بعهده إلى المسلمين ، وبذلك أصبح عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ثاني خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ . صعد عمر المنبر صبيحة اليوم الذي تلا وفاة أبي بكر ليخطب بالناس فهو خليفتهم الآن ، وهم ملزمون باطاعته ما دام يطيع الله ، ويسير على سنة رسوله .

خطب عمر في الناس فقال : إنما مَثَلُ العرب مثلُ جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود ، وأما أنا فوربّ الكعبة لأحملنهم على الطريق[2] .

أما أول كتاب كتبه عمر بعد توليه أمر المسلمين ، فكان كتابه إلى « أبي عبيدة بن الجراح » ، يوليه قيادة جيش المسلمين في الشام وعزل « خالد بن الوليد » وقال له : أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص« ٤٢٩ » . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص« ٤٣٣ » ، الناشر دار المعارف بمصر .

لاتقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كثف[1] من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وقـد أبلاك الله بي وأبلاني بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم[2] .

معركة اليرموك :

تولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الخلافة ، وجيش المسلمين في أرض الشام يستعد لأكبر معاركه مع الروم ، يستعد لمعركة اليرموك .

كانت الهزائم التي لحقت بالروم منذ أن سير الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، الجيوش لفتح أرض الشام ، ومنذ أن التحق خالد بن الوليد مع جيش العراق ، بالمسلمين في الشام . تلك الهزائم كانت مصدر قلق لأمبرطور الروم « هرقل » .

كان « هرقل » يتحين الفرصة للنيل من المسلمين ، ويعد العدة لملاقاتهم واختار في النهايـــة منطقة اليرموك ليحشد فيها معظم جنده في أرض الشام . وأمر عليهم خيرة قواده على أمل أن يوقف زحف المسلمين ويلحق بهم الهزيمة ويردهم عن أرض الشام .

وعلم المسلمون بأمر تجمع الروم في منطقة اليرموك – فانطلق خالد بن الوليد الذي كانت لا تزال له الامارة على المسلمين – بجيش المسلمين إلى تلك المنطقة .

عسكرت ألويـة المسلمين في منطقة اليرموك غير بعيدة عن تجمعات

---

(١) كثف الناس : الجماعة من الناس .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ٣ ص «٤٣٤» ، الناشر دار المعارف بمصر .

الروم . وبدأ خالد بتوزيع تلك الألوية وتنظيم صفوفها ونشر جندها بما يواجه جيش الروم .

فكان على ميمنة جيش المسلمين لواء عمرو بن العاص ، يليه لواء شرحبيل بن حسنة ، فلواء أبي عبيدة بن الجراح ، وفي ميسرة الجيش لواء يزيد بن أبي سفيان .

وعمد خالد إلى توزيع الألوية على هيئة كراديس[1] ، فكان هناك كراديس في الميمنة وأخرى في القلب ، وثالثة في الميسرة .

أما فارسنا القعقاع فكان على رأس كردوس من كراديس أهل العراق في مجنبة قلب جيش المسلمين[2] .

كان خالد يتجول بين الصفوف يشجع المسلمين ويرفع من معنوياتهم ويذكرهم بما أعد الله للشهداء من نعيم مقيم ، وما سيناله المجاهدون من ثواب عظيم .

وقال رجل لخالد يومها وقد رأى ما أعد الروم لقتال المسلمين من عدة وعتاد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين !!

فأجابه خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين . إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) ، براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد[3] .

وأخرج خالد قبل القتال « المقداد » يقرأ للمسلمين من سورة الأنفال

---

(١) الكراديس : جميع كردوس : يماثل الكتيبة في تنظيم الجيوش الحالية . ويبلغ تعداد الكردوس من ثمانمائة إلى تسعمائة رجل .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – ج٣ص«٣٩٦». الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، ج ٣ ص « ٣٩٨ » . الناشر دار المعارف بمصر .

وكانت سنة استنها الرسول ﷺ ، بقراءة سورة الأنفال ، سورة الجهاد قبل القتال[1] .

أما « عمرو بن العاص » قائد الجناح الأيمن لجيش المسلمين ، فقد وقف يعظ جنده ويبصرهم بأصول القتال ، ويقول لهم : غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا في وجوهم وثبة الأسد ، فوالذي يرضي الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب . ويجزي بالاحسان إحساناً ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول[2] .

وبينما كانت استعدادات المسلمين تجري بهمة ونشاط ، وصل رسول من المدينة يحمل إلى أبي عبيدة رسالة من الخليفة ، وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة .

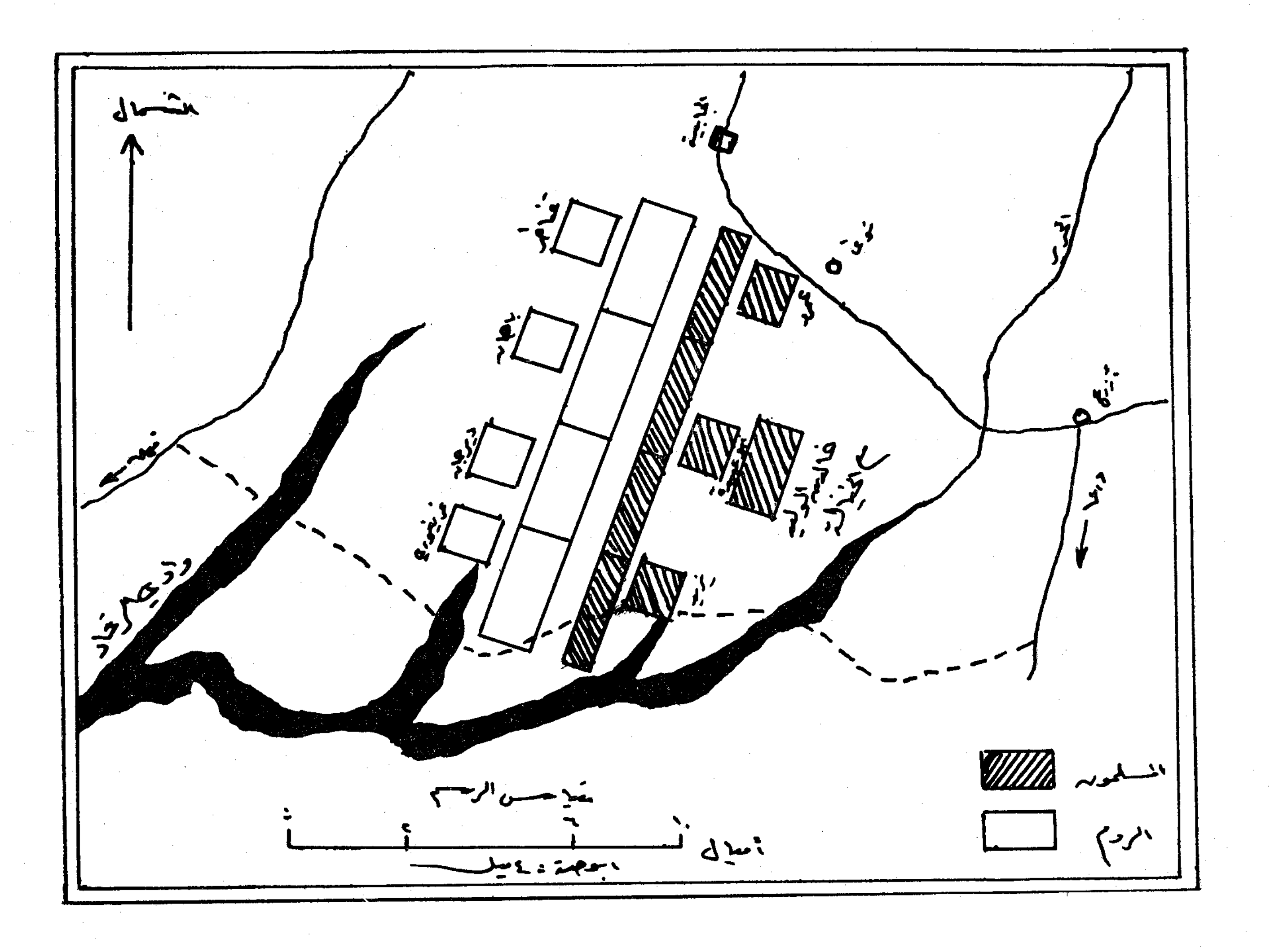
لقد توفي أبو بكر ، وخلفه على المسلمين عمر بن الخطاب ، الذي بعث بهذه الرسالة إلى أبي عبيدة يأمره بتسلم قيادة جيش المسلمين بعد أن عزل خالد بن الوليد ؟!!

على أن أبا عبيدة أخفى كتاب الخليفة ولم يطلع عليه أحداً ، حرصاً منه على معنويات المسلمين في تلك اللحظات الحرجة قبل بدء المعركة[3] .

كان قائد جيش الروم في تلك المعركة ، القائد الأرمني « باهان » ، الذي وزع جيشه بترتيب قتالي ليواجه المسلمين .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٣ ص«٣٩٧»، الناشر : دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ « ٣٩٨ » الناشر دار المعارف في مصر .
(٣) » » » » » ٣ » ٣٩٩ » » » » »



الشمال
المسلمون
الروم
مقياس الرسم
أميال

فأمام جناح عمرو كان يقف جيش القائد الروماني « قناطير » ، يليه جيش « ماهان » ، ثم جيش القائد « ديرجان » أما جناح الجيش الروماني الأيمن فكان يقوده القائد « غريغوري » .

بدأت المعركة في أول أيامها بخروج قائد روماني من بين صفوف جند الروم ، واسمه « جرجة » وتقدم بفرسه حتى وقف بين الجيشين ونادى ليخرج اليه خالد ، فاستجاب خالد لندائه ، واقترب الفارسان من بعضهما حتى اختلفت أعناق دابتيهما . وقال جرجة لخالد : يا خالد اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال خالد : لا . فسأله جرجة : فبمَ سميت سيف الله ؟ أجابه خالد : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به ، فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ! ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من اشد المسلمين على المشركين . قال جرجة : صدقتني ، ثم أعاد عليه : يا خالد أخبرني إلام تدعوني ؟!

قال خالد : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، قال جرجة : فمن لم يجبكم ؟ أجابه خالد : فالجزية ونمنعهم ، قال جرجة : فإن لم يعطها . قال خالد : نؤذنه بحرب ، ثم نقاتله . قال جرجة : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى إلى هذا الأمر اليوم ؟ فأجابه خالد : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا . ثم أعاد عليه جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ فأكد له خالد : نعم

وأفضل ، فسأله جرجة : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال خالد : إنا دخلنا في هذا الأمر ، وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا ، أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا . قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني !! فأكد له خالد : بالله ، لقد صدقتك وما بي اليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولي ما سألت عنه : فقال جرجة: صدقتني ، وقلب جرجة ترسه ومال مع خالد ، وقال ، علمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاطة ، وشن عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين .

وانقضى اليوم الأولى من أيام المعركة باعتناق القائد الروماني « جرجة » الإسلام ، وبمبارزات تقليدية بين فرسان المسلمين وفرسان الروم ، واستطاع فرسان المسلمين القضاء على كل فارس خرج من بين صفوف الروم .

وفي اليوم التالي ، أوعز قائد جيوش الروم « باهان » لقائد جناح جيشه الأيسر « قناطر » بشن هجوم عام ضد جناح المسلمين الأيمن الذي يقوده « عمرو بن العاص » . وكان هجوم جيش « قناطر » عنيفاً وشديداً نجح المسلمون في صده لفترة من الوقت ، تراجعوا بعدها إلى الخلف تحت ضغط جند الروم ، ووصلوا بتراجعهم إلى معسكرهم خلف خطوط دفاع الجيش ، عندها وجدوا نساء المسلمين يتصدين لهم ، ويحلن بينهم وبين التراجع ، ويصرخن في وجوهم ... فثاب المسلمون إلى رشدهم، وتنادوا للعودة إلى أرض المعركة ، لصد هجوم الروم .

وتحرك خالد مع ثلة من فرسان المسلمين لسد الثغرة التي نفذ منها الروم وقد لاحظ ضغطهم المتزايد على جناح المسلمين الأيمن ، وبفضل مساندته ، نجح المسلمون في صد هجوم الروم وردهم إلى الخلف ، وما أن انقضى النهار حتى كان الجيشان قد عادا إلى مواقعهما الأولى .

ولم يكن ما نال جناح عمرو بأقل مـــا نال جناح يزيد حيث شن جناح الروم الأيمن بقيادة «غريغوري» هجوماً عاماً ضد لواء يزيد ، ولكن جند يزيد أفلحوا في رد الروم إلى مواقعهم بعد قتال عنيف من الطرفين .

وفي اليوم الثالث من أيام المعركة ، عمد « قناطر » إلى مهاجمة ميمنة جيش المسلمين من جديـــد ، وعمل جيش الروم على الفصل بين لواء عمرو ولواء شرحبيل ، ونجحوا في ذلك ، مما دفع المسلمون للتراجع مرة أخرى ، ولكن تراجعهم هذه المرة كان بقصد رص الصفوف ، والعودة إلى أرض المعركة من جديد ، واستطاعت خيالة لواء عمرو صد هجوم الروم وعملت مع المشاة على دفعهم إلى الخلف ، وعاد بذلك الاتصال بين لوائي « عمرو وشرحبيل » .

ولم يحقق الروم في هذا اليوم من أيـــام المعركة أيضاً ، ما سعوا اليه ، فهم لم يفلحوا في اكتساب أية مواقع من المسلمين ، فالنهار انقضى وعاد الجيشان إلى مواقعهما القديمة .

وفي اليوم الرابع ، عاد هجوم الروم لينصب مجدداً على لوائي « عمرو وشرحبيل » ، إلا أن خالداً أوعز في هذا اليوم إلى أبي عبيدة ويزيد أن يشنا هجوماً عاماً بعد أن كانا في اليوم السابق يكتفيان بمناوشة قوات الروم التي تقف في مواجهة لوائهما .

ووجد « باهان » أن ضغط لوائي أبي عبيدة ويزيد ، يزداد على

جيشي « غريغوري وديرجان » بينما كان جيش « قناطر » وجيشه مشغولين بقتال لوائي « عمرو وشرحبيل » ، فعمل على مساندة جناحه الأيمن مما خفف الضغط عن لوائي « عمرو وشرحبيل » ومكنهما بالتالي من صد هجوم جيش « قناطر » .

وما أن أشرقت شمس اليوم الخامس من أيام المعركة ، حتى كان التعب والاعياء قد نال من كلا الجيشين ، على أن المسلمين كانوا في حالة دفاع معظم أيام المعركة ، وبخاصة جناحهم الأيمن ، ورأى خالد أن الوقت قد حان ليشن المسلمون هجوماً عاماً تشترك فيه جميع ألويتهم في وقت واحد .

وأوعز خالد للقعقاع ولعكرمة – وكانا على مجنبتي القلب – ببدء القتال ، فأنشبا القتال والقعقاع يرتجز :

يا ليتني ألقاك في الطِّرادِ قبل اعتِرام الجحفَلِ الورّادِ
وأنت في حَلْبتك الوارِدِ[1]

كان اهتمام خالد منصباً على جناح الروم الأيسر ، الذي كان يقود الهجوم طوال أيام المعركة مما أنهكه وجعله يفقد الكثير من جنوده ، بالاضافة الى أن خيالة « باهان » تتمركز بجانب هذا الجناح .

وأراد خالد أن يفصل خيالة الروم عن مشاتهم ، مما يساعده على النيل من كل فريق على حدة ، وهذا يذكرنا باستراتيجية خالد التي اتبعها في أرض العراق .

واعتمد خالد على خيالته السريعة الحركة ، الماهرة في القتال ، الصعبة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص « ٣٩٨ » ، الناشر دار المعارف بمصر .

المراس ، ذات الخبرة الطويلة في المعارك ، على تنفيذ خطته تلك ، بالاضافة إلى مساعدة لوائي عمرو وشرحبيل .

ونجحت خطة خالد واستطاع مع خيالته وجند لوائي ميمنة جيش المسلمين ، من فصل خيالة الروم عن مشاتهم مما أتاح له بعد ذلك الالتفاف مع خيالته خلف مشاة الروم ، في الوقت الذي كان لواءا أبي عبيدة ويزيد يتابعان ضغطهما على قلب وميمنة جيش الروم . مما دفع الروم للتراجع العام ، بعد أن فرّ قائدهم « باهان » مع خيالته باتجاه شمالي أرض المعركة .

وسرعان ما وجد الروم أنفسهم محاصرين من كلا الطرفين ، جيش المسلمين من طرف ، ووادي الرقاد من طرف آخر .

فالروم كانوا يحاربون وخلفهم وادي الرقاد ، كما عمدوا قبل بدء المعركة إلى ربط مشاتهم بالسلاسل في محاولة لمنع المسلمين من النفاذ من بين صفوفهم ، وليقاتلوا جميعاً كتلة واحدة ، ولكن هاقد لحقت بهم الهزيمة ، وملأ قلوبهم الخوف ، وتزعزعت صفوفهم ، فعمدوا إلى الهرب من أرض المعركة ، فكان أن سقط الكثيرون منهم في ذلك الوادي .

وأرسل خالد بعض فرسانه خلف خيالة الروم الذين فروا بقيادة « باهان » ، وذلك قبل أن يلوذ البقية بالفرار . وهكذا كتب الله النصر للمسلمين ، واستطاعوا الانتصار على الروم في أكبر معركة من المعارك التي وقعت بينهما على أرض الشام .

وما أن انتهت المعركة ، حتى أطلع أبو عبيدة خالداً على كتاب الخليفة !! وعجب خالد كيف كتم أبو عبيدة أمر هذا الكتاب طوال أيام المعركة ، ولكن أباعبيدة كان همه الأول انتصار المسلمين ، ولم يكن له وهو (أمين هذه الأمة) وفي هذا الظرف العصيب قبل بدء المعركة

أن يريد لها أي خلاف أو نزاع ، وهو أبعد ما يكون عن الطمع بأية أمارة أو قيادة ، ولكن بما أن المعركة قد انتهت بانتصار المسلمين فلا يملك أبو عبيدة إلا أن يصدع لأوامر الخليفة .

فكان أن استلم أبو عبيدة أمارة الجيوش الإسلامية في أرض الشام ، وتنحى خالد عن هذه الأمارة ، مطيعاً الخليفة منفذاً لأوامره .

ومهما قيل عن أسباب عزل خالد ، وعما هدف اليه عمر من وراء هذا العزل ، فلا نفسره نحن إلا بما فيه صالح المسلمين ، وخير هذه الأمة . فعمر لم يكن يريد أن يُفتن المسلمون بخالد ويحسبوا أن النصر كان من عنده ، لا من عند الله ، وبفضل صبر المجاهدين وثباتهم في أرض المعركة ، وبذلهم لأنفسهم طلباً للشهادة أو طمعاً بالنصر .

لم يكن هناك مكان لأي حقد أو ضغينة في نفوس أولئك الصحابة الأجلاء ، كان خير هذه الأمة ، ونصرتها ورفع لواء الإسلام عالياً هو همهم الأول والأخير ، وغيره من متاع هذه الدنيا هو آخر ما يفكرون به .

وأنشد القعقاع بن عمرو في يوم اليرموك ، وكان بين صفوف المجاهدين :

أَلَمْ تَرَنا على اليرموك فُزْنا ... كما فُزْنا بأيام العراقِ

فتحنا قبلها بُصرى وكانت ... محرَّمة الجناب لدى البعاق[1]

وعذراءَ المدائن قد فتحنا ... ومرجَ الصُفَّرين على العتاق[2]

قتلنا من أقام لنا وفئنا ... نهابهم بأسياف رقاق

قتلنا الروم حتى ما تُساوي ... على اليرموك ثفروق الوراق[3]

---

(١) ويقال : لدى العناق . والعناق النجم الأوسط من بنات نعش الكبرى وهي توصف بالبعد والخفاء يقول إنها في امتناعها وبعدها على الغزاة كأنها عند العناق . تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى . ص «٥٥١» . الناشر المجمع العلمي العربي .

(٢) يقصد بالعتاق: عتاق الخيل.

(٣) إن العرب تشبه الشيء الحقير بثفروق النواة .

فضضنا جَمْعَهم لما استحالوا على الواقصة البتر الرقاق[1]
غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمر يعضل بالذواق[2]

فتح مدينة دمشق :

بعد انتصار المسلمين المظفر على الروم في معركة اليرموك ، سار جيش المسلمين بإمرة أبي عبيدة بن الجراح إلى دمشق ، بعد أن أمر أبو عبيدة على اليرموك « بشير بن كعب بن أُبي الحميري » .

ووصلت الأنباء لأبي عبيدة بتجمع الروم في (فحل)[3] ، كما أتاه الخبر بأن مدداً من الروم قد أتى أهل دمشق ، فحار أبو عبيدة من أين يبدأ ؟ بدمشق أم بفحل ؟!!

كتب أبو عبيدة إلى الخليفة في المدينة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يسأله أوامره في ذلك ، فعمر الخليفة وهو أحق من يسأل في هذا المقام .

فكتب عمر إلى أبي عبيدة يقول : أما بعد ، فابدأوا بدمشق ، فانهدوا لها ، فانها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل من يمسك بها ، ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا

---

(١) في الأصل وردت بهذا الشكل ، أما في ترجمة القعقاع « وعلى الواقوص بالبتر الرقاق » وكذا في البداية والنهاية وهو الصواب . تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المجلدة الأولى ص «٥٥٢» .

(٢) الذواق : الابتلاء والتجربة . تاريخ مدينة دمشق . لابن عساكر . المجلدة الأولى . ص « ٥٥١ — ٥٥٢ » . الناشر المجمع العلمي العربي .

(٣) فحل : مكان يقع إلى الشرق من نهر الأردن .

على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته[1] .

وبناء على أوامر الخليفة بعث أبو عبيدة بعشرة قوادٍ مع جنودهم إلى (فحل) ، لمحاصرتها ومنع الروم من اللحاق بزملائهم في دمشق .

كما أرسل أبو عبيدة بقوة من جند المسلمين بقيادة « ذي الكلاع » ، لترابط في الطريق بين دمشق وحمص ، ولتحول بين أية قوة من الروم قد يبعث بها « هرقل » من مدينة حمص في محاولة لمساعدة حامية الروم في دمشق ، أو لفك حصار المسلمين عن أسوارها .

كما بعث أبو عبيدة « بعلقمة بن حكيم » مع قوة من جند المسلمين لترابط في الطريق بين دمشق ومدن فلسطين لمنع وصول أية امدادات من الروم إلى مدينة دمشق .

وعندما اطمأن أبو عبيدة بأنه لن يؤخذ على حين غرة من قبل أية قوة من الروم قد تأتيه من خلفه توجه بجيش المسلمين نحو مدينة دمشق .

كان خالد بن الوليد على مقدمة جيش المسلمين ، وعلى جناحي الجيش أبو عبيدة ، وعمرو بن العاص .

لقد اختار أبو عبيدة خالد بن الوليد لقيادة مقدمة جيش المسلمين ، وما ذلك إلا لخبرة خالد الطويلة في المعارك وحسن قيادته ، ومهارته في القتال ، ومقدرته على محاربة أعداء المسلمين .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى . جـ ٣ ص « ٤٣٧ – ٤٣٨ » . الناشر : دار المعارف بمصر .

تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص « ٥١٤ » . الناشر : المجمع العلمي العربي بدمشق .

كان حاكم مدينة دمشق ، القائد الروماني « نسطاس بن نسطورس » ، وقد علم بزحف المسلمين نحو مدينة دمشق ، أخـذ يعد العدة للدفـاع عنها ، ويحشد قواته على سور المدينة ، ويكدس فيها المؤن والأطعمة ، ويهيىء أهل دمشق للدفاع عن مدينتهم .

وصل جيش المسلمين ليجد الروم وأهل دمشق قد احتموا داخل سور المدينه ، وأغلقوا أبوابها دونهم .

انتشر المسلمون حول سور المدينة ، وتولى كل قائد من قواد المسلمين مع جنده مراقبة باب من أبواب المدينة ، منعاً لخروج الروم منها ، ولوصول أية امدادات اليها .

فرابط خالد بن الوليـــد مع جنده الذين أتوا معه من العراق ومن بينهم القعقاع بن عمرو ، أمام الباب الشرقي للمدينة ورابط أبو عبيدة أمام باب الجابية ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص أمام الفراديس ، وأمام الباب الصغير رابط يزيد بن أبي سفيان .

استمر حصار المسلمين لمدينة دمشق سبعين ليلة[١] ، كان الحصار شديداً والتراشق بالسهام والرماح بين المسلمين والروم مستمراً .

وأرسل نسطاس إلى هرقل في حمص يسأله المدد والمعونة ، فسير له هرقل جيشاً رومانياً في محاولة لفك الحصار عن مدينة دمشق ، بعد أن طال حصارها ، وعانى أهلها الكثير من العنت والارهاق .

ولكن ذي الكلاع وجنده اعترضوا الجيش الروماني الذي خف لنجدة حامية الروم في دمشق ، وبعد معركة ضارية استطاع المسلمون التغلب

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص « ٤٣٨ » . الناشر دار المعـــارف بمصر .

على الجيش الروماني ، واجباره على التراجع ، وكفوا بذلك المسلمين الذين يحاصرون مدينة دمشق مغبة تسلل جنـد هرقل من خلفهم للنيل منهم وهم مشغولون بحصار المدينة .

وعندما وصلت أنباء هزيمة جند الروم الذين أرسلهم هرقل من حمص ضاق الحال بأهل دمشق ، وتسرب اليـأس إلى نفوسهم ، وأيقنوا بأن المسلمين جادين في فتح المدينة وأنهم لن يرفعوا الحصار عنها إلا ليدخلوها فاتحين ظافرين .

لم يكن من السهل اقتحام مدينة دمشق ، فهي محصنة بشكل جيد ، وسورها المنيع يحول دونها ودون من يريدون اقتحامها عنوة ، فلا بد من التحايل إذن ليتمكن المسلمون من اقتحام هذا السور .

كان خالد بن الوليد المرابط مع جنده أمام الباب الشرقي ، لا يستقر قراره ، ولا يهدأ له حال وهو يرى سور دمشق يقف في طريقه ويحول بينه وبين فتح هذه المدينة .

وجاءت الفرصة أخيراً .. فقد ولد - لأحد قادة الروم في المدينة - مولود ، فاحتفل الجند المكلفين بالدفاع عن الباب الشرقي بهذه المناسبة ، وقضوا ليلتهم في سكر وعربدة ، مهملين واجبهم برصد تحركات المسلمين المرابطين أمام هذا الباب والدفاع عنه .

وعرف خالد بوساطة عيونه التي بثها في المدينة بحال جند الروم في تلك الليلة ، فعزم على ارتقاء السور ، والوصول الى الباب وفتحه ...

صحب خالد معه في هذه المهمة الصعبة ، القعقاع بن عمرو ، وعدي ابن حاتم ، وكانوا قد صنعوا حبالاً على شكل سلالم ليستطيعوا بواسطتها ارتقاء السور ، واتفق خالد مع جنده على أن يلحقوا بـــه وبصاحبيه

حين يكبر لهم ، وقال لهم : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب[1] .

وعند الوقت المتفق عليه ، انطلق خالد والقعقاع وعدي ، بعد أن حملوا القِرَب على ظهورهم لتساعدهم على اجتياز خندق الماء الذي كان يحيط بالسور ، ولما نجحوا في ذلك ألقوا بالحبال والسلالم إلى أعلى السور ، وأسرعوا بارتقائه ، وكبّر خالد عندها لأصحابه ليلحقوا به ، بينما نزل هو للقضاء على الحراس الروم المتبقين للدفاع عن الباب ، فقتلهم ليفتح بعدها الباب ، ويدخل جنده شاهرين سيوفهم ، مصوبين رماحهم ، منطلقين نحو تجمعات الروم الذين ذهلوا من وقع المفاجأة وقد رأوا المسلمين فوق رؤوسهم ، فأسقط في يدهم ، ولم يبق أمامهم إلا الفرار ، فنجا بنفسه من استطاع ، وقتل الكثيرون بسيوف المسلمين ورماحهم .

وبلغ نسطاس اقتحام المسلمين للباب الشرقي بقيادة خالد بن الوليد ، ففكر في سبيل النجاة ، ولم يجد أفضل من أن يعرض الصلح على أبي عبيدة ، ويفتح بقية أبواب المدينة للمسلمين ليدخلوها صلحاً ، فينجو هو وأصحابه من القتل .

وقبل أبو عبيدة عرض نسطاس وهو لا يعلم باقتحام خالد وجنده لسور المدينة ودخوله اليها فاتحاً ، والتقى به بعد ذلك في وسط المدينة وعجب كل منهما لرؤية صاحبه ، فخالد كان سيفه يقطر من دم جند الروم ، فهو وجنده مندفعون يقاتلون ويقضون على كل مقاومة تعترض طريقهم وسيوف جند أبي عبيدة مغمدة وهم يتفاوضون مع قادة الروم على شروط الصلح !!

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٤٣٩ » الناشر دار المعارف بمصر .
تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى . ص «٥١٥» . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

كان أبو عبيدة هو القائد وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، ورضخ خالد لأوامر قائده ورضي بالصلح الذي أبرمه أبو عبيدة مع الروم .

وهكذا فتحت مدينة دمشق ودخلها المسلمون . دخلها أبو عبيدة وجنده صلحاً ، ودخلها خالد وجنده ومن بينهم القعقاع من الباب الشرقي حرباً . وتم فتح المدينة في شهر رجب من العام الثالث عشر للهجرة .

وأنشد القعقاع بعد فتح مدينة دمشق :

أقمنا على داري سليمان أشهراً
نجالد روما قد حموا بالصوارم[1]

فضضنا بها الباب العراقي عنوةً
فدان لنا مستسلماً كل قائم[2]

أقول وقد دارت رحانا بدارهم
أقيموا لهم جز الذري بالغلاصم

فلما زأدنا[3] في دمشق نحورهم
وتدمر عضواً منها بالأباهم[4]

(١) داري سليمان : يعني بهما دمشق وتدمر . على أن هناك خطأ بخصوص تدمر . فلا يعتقد بأن سليمان بناها .

(٢) فضضنا : كسرنا . الباب العراقي : الباب الشرقي الذي من جهة العراق .

(٣) زأده : أفزعه .

(٤) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الأولى ص« ٥١٨ » الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

معركة فحل :

بعد أن تم للمسلمين فتح مدينــة دمشق ، خلف فيها أبو عبيدة ، يزيد بن أبي سفيان ، وانطلق بجيش المسلمين إلى (فحل) .

كانت قيادة الجيش « لشرحبيل بن حسنة » ، فمنطقة فحل تقع ضمن الأراضي التي عقد الخليفة أبو بكر الصديق لشرحبيل لواء فتحها ، منذ أن سير الجيوش لفتح أرض الشام .

سار شرحبيل بجيش المسلمين نحو (فحل) ، وكان أبو عبيدة وعمرو ابن العاص ، أميرا جناح هذا الجيش ، وخالد بن الوليد قائد مقدمته (التي كان القعقاع من فرسانها) ، وضرار بن الأزور قائــد خيالة الجيش[1] .

وصل جيش المسلمين إلى (فحل) في شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر للهجرة . وفوجيء المسلمون بالروم وقد غادروا فحــل ولحقوا بحصن مدينة (بيسان) !!

وعمد الروم قبل مغادرتهم لفحل إلى سد نهر الأردن في تلك الجهة من الأرض ، مما أدى إلى ارتفاع منسوب الميــاه لتغمر الأراضي الواقعة على جانبي النهر ، فأوحلت تلك الأراضي ، وأصبح التحرك فيها صعباً وشاقاً مما عرقل تقدم جيش المسلمين وجعله يواجه أرضاً جديدة للمعركة غير الأرض التي اعتاد أن يحارب فيها . فالأرض موحــلة ، مليئة بالمستنقعات ، تغوص أرجل الجند إن ساروا فيها ، وتتعثر حركة الخيل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٤٤٢ » الناشر دار المعارف بمصر .
تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجــلدة الأولى . ص «٤٨٥» . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

في أنحائها ، مما حقق للروم ما أرادوه من إعاقة المسلمين ووقف تحرك جيشهم .

ووقف جيش المسلمين حيث وصل ، ولم يستطع أن يلحق بالروم ، وكتب شرحبيل إلى الخليفة في المدينة عمر بن الخطاب ، يسأله رأيه ، موضحاً له المأزق الذي يعانيه جيش المسلمين .

كان قائد الروم في فحل ، « سقلار بن مخراق » ، رجلاً خبيثاً ، ينوي أن ينال من المسلمين مستغلاً فرصة وجودهم في أرض لم يعتادوا أن يقاتلوا فيها ، وبعد أن يكون التعب والاعياء قد نالا منهم ، لمسيرهم من دمشق إلى فحل وانتظارهم الطويل في تلك الأراضي الموحلة . وأعد خطته لمباغتة جيش المسلمين على حين غرة ، ومن دون أن يتوقع المسلمون هذا الهجوم المفاجىء .

ولكن شرحبيل بن حسنة كان قائداً حذراً يقظاً ، لم يكن ليستكين للراحة والهدوء ، وهو يرى جنده يعانون ما يعانونه من تلك الأرض ، ولم يكن بالتالي يسمح لجنده أيضاً بالراحة ، بل كان يسير دوريات من جند المسلمين على طول تلك الأراضي الموحلة لرصد تحركات الروم وتجمعاتهم .

ولم يطل الوقت حتى تحرك جيش الروم إلى فحل من جديد ، في محاولة للنيل من المسلمين وقد وضع « سقلار » في حسبانه أن المسلمين مستسلمون للراحة ، وأنه سيلحق بهم الهزيمة في فترة قصيرة !!

ولكن ما أن وصل جيش الروم إلى فحل حتى وجد جيش المسلمين موزعاً بترتيب قتالي ، وكأنه كان ينتظر الروم ويعرف موعد قدومهم.

والتحم الجيشان ، وكان القتال شديداً ، والمعركة حامية الوطيس ، كل جيش يطمع بالنصر ويحمل على الجيش الآخر . واستمر القتال منذ ليلة

وصول الروم إلى فحل إلى اليوم الذي تـــلاه ، ونجح المسلمون في صد هجمات الروم ، ومنعهم من النفاذ من بين صفوفهم ، ومـــا أن غربت شمس ذلك اليوم ، حتى تحول المسلمون للهجوم ، واستطاعوا أن ينفذوا من بين صفوف الروم ، ليلحقوا بهم الهزيمة بعد ذلك .

وفرّ الروم من أرض المعركة ، ولحق بهم المسلمون ، وعرقلت الأوحال تراجع الروم ، وسقط معظمهم في المستنقعات فنال منهم المسلمون، وقتلوا الكثيرين قبل أن يفر البقية ويلحقوا بحصن بيسان .

وقتل في هذه المعركة قائد الروم « سقلار بن مخراق » ، ومعـــاونه « انسطورس »[1] .

وأنشد القعقاع في يوم فحل :

كم من أبٍ قد ورثتُ فعاله	جمٌّ المـكارم بحرُه تيـّـار
ورث المكارم عن أبيه وجده	فبنى بنـــاءهم له استبصار
فبنيت مجدهم ومـــا هدّمته	وبَنى بعدي ان بقوا عُمّار
ما زال منافي الحروب مُرَوَّس	ملك يغير وخلفـــه جَرّار
بطلُ اللقاء إذا الثغور توكلتِ	عنـد الثغور مُجرب مظفار
وغداه فحل قد رأوني معلما[2]	والخيل تنحط والبلا أطوار[3]
يفدي بلائي عندها متكلف	سلس الميـاسر عوده خوار

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٤٤٢ــ٤٤٣» ، الناشر دار المعارف بمصر .
تاريخ مدينـة دمشق : لابن عساكر المجلدة الأولى ص « ٤٨٦ » النـــاشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٢) معلماً : أي ذو علامة .

(٣) تنحط . نحط نحيطا : زفر . والنحط صوت الخيل من الثقل والاعياء .

سلس المياسر ما تسامى ماقطاً عند الرهـــان معير عيار[١]

ما زالت الخيل العراب تدوسهم في حوم فحل والهبا موّار[٢]

حتى رمــين سرانهم عن أسرهم في رَدْغةٍ ما بعدها استمرار

يوم الرداغ بُعَيد فحل ساعةً وخزُ الرماحِ عليهم مِدرارُ

ولقد أبرنا[٣] في الرداغ جموعهم طراً ونحوي تشخص الأبصار[٤]

العودة إلى العراق :

كانت معركة (فحل) آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع بن عمرو في أرض الشام . فقد شارك القعقاع في معظم فتوحات المسلمين في أرض الشام ، وسجل أروع آيات البطولة والشجاعة ، وأثبت مقدرته وكفاءته ومهارته في القتال ، وكان من الفرسان الذين لم تنس أرض الشام مآثرهم وشجاعتهم وبطولاتهم ، وحان الوقت الآن ليعود إلى العراق إلى الأرض التي شهدت أولى معاركه وانتصاراته وحسن بلائه .

فقد قدر الخليفة عمر بن الخطاب حاجة جند المسلمين الذين يحاربون في العراق إلى المزيد من المدد والمعونــة ، فكتب إلى أبي عبيدة في الشام يأمره أن يعيد جيش العراق الذي قدم به خالد بن الوليد بناء على أوامر الخليفة الأول أبي بكر الصديق في أولى فتوحات المسلمين لأرض الشام إلى العراق لينضم جيش المسلمين هناك .

---

(١) الماقط : المضيق في الحرب .

(٢) الهبا : الغبار . أو ما يشبه الدخان .

(٣) أبر القوم : أهلكهم .

(٤) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر المجلدة الأولى ص (٤٨٨) النــاشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

فالمعركة الحاسمة بين المسلمين والفرس قد بدأت . لقد بدأت معركة القادسية .

معركة القادسية :

لو لم يحفظ التاريخ للقعقاع بن عمرو إلا اشتراكه في معركة القادسية، وما سجله في تلك المعركة من شجاعة وبطولة ومهارة في القتال ، وما اصطنعه من حيل وخدع ... لو لم يحفظ التاريخ له إلا هذا لكان يكفي معه أن يقال بأن القعقاع كان من أشجع شجعان العرب ، وأنه فارس ما عرف تاريخ الفتوح الإسلامية الأولى إلا القليل من أمثاله ، وأن تلك الصفحات الخالدة من البطولة والشجاعة والمقدرة قد سجلها بأحرف مضيئة مشرقة أعجزت الكثيرين من بعده على أن يخطوا مثلها ...

فمنذ انتقال خالد بن الوليد بنصف جيش العراق إلى الشام بناء على أوامر الخليفة الأول أبي بكر الصديق وبقاء النصف الثاني في أرض العراق بقيادة « المثنى بن حارثة » لم تجر معركة حاسمة بين المسلمين والفرس بل كانت هناك عدة مواقع اصطدم فيها المسلمون بقيادة المثنى بقوات الفرس ، وكان أشدها تلك التي نال فيها الفرس من المسلمين وأوقعوا بهم في (موقعة الجسر) .

أما وقد بلغت فتوح المسلمين في أرض الشام ذروتها ، وتم لهم الإنتصار على قوات الروم في عدة معارك ، وهزموهم في أكبر تلك المعارك وأعظمها ألا وهي معركة اليرموك لينطلق بعدها المسلمون لفتح كل أرض الشام ، فقد آن الأوان للالتفاف من جديد لأرض العراق لفتحها والقضاء على كل مقاومة للفرس فيها وتقويض أركان ملكهم . وعندها بدأ اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ينصب على فتح أرض العراق . عزم الخليفة على قيادة جيش المسلمين بنفسه إلى

أرض العراق ، فغادر المدينة بعد أن خلف فيها على المسلمين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .

جعل عمر على ميمنة جيشه « عبد الرحمن بن عوف » ، وعلى ميسرته « الزبير بن العوام » وعلى مقدمة الجيش « طلحة بن عبيد الله »[1] .

وصل الخليفة بجيش المسلمين إلى مكان يقال له (صرار) ، واجتمع اليه المسلمون فأخذ يستشيرهم هل يمضي على رأس الجيش إلى العراق أم يولي على هذا الجيش قائداً غيره ؟!!

وتضاربت آراء المسلمين ، منهم من أشار عليه بالمضي ، ومنهم من سأله أن يبقى في المدينة ...

وكان « طلحة بن عبيد الله » من أصحاب الرأي الأول ، وأما « عبد الرحمن بن عوف » فسأل الخليفة أن يبقى في المدينة وأن يولي على الجيش قائداً غيره ، وقال له : بأبي وأمي ، اجعل عجزها بي[2] وأقم وأبعث جنداً ، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت ألا يكبر المسلمون وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً وهو في ارتيادٍ من رجل[3] .

وبيّن الصحابي الجليل « عبد الرحمن بن عوف » كيف أنه فدى الخليفة بأبيه وأمه يومها وهو لم يفعلها من قبل إلا حين فدى الرسول ﷺ وأنه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٤٨١ » . الناشر : دار المعارف بمصر.

(٢) أي اجعلني آخر من تبعث .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٤٨١ – ٤٨٢ » . الناشر : دار المعارف بمصر .

لم يفعلها من بعد وقال : فما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده[1] .

استراح الخليفة لرأي عبد الرحمن بن عوف ، وأحس بأن بقـــاءه في المدينة خير من قيـادته لجيش المسلمين ، وبـدأ يفكر في الرجل الذي سيعهد اليه بتلك القيادة .

كان « سعد بن أبي وقاص » على صدقات منطقة (هوزان) ، وكتب اليه عمر في بـدء استعدادات المسلمين للمسير إلى العراق ، لينتخب له عدداً من الفرسان ذوي رأي ونجـدة ، ليضمهم إلى الجيش المتجه إلى أرض العراق .

فأتاه كتاب سعد : إني قد انتخبت لك ألف فارس مؤد[2] كلهم له نجدة ورأي ، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم ، اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم ، فشأنك بهم[3] .

وكان وصول الكتاب في الوقت المناسب ، فالخليفة لم يستقر رأيه على رجل معين وكان لا يزال يبحث عمن يوليه أمر قيـادة الجيش . فأشار عليه الصحابي عبد الرحمن بن عوف بتوليه سعد بن أبي وقاص القيادة ..

وأرسل عمر إلى سعد ليأتيه ، وقدم سعد المدينة وحضر مجلس الخليفة وخرج منه وله القيادة على جيش المسلمين المتجه إلى العراق .

وكانت وصية الخليفة لسعد : يا سعد ، سعد بني وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص «٤٨١» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) فارس مؤد : ذو أداة ، أو كامل اداة السلاح .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص «٤٨٣» الناشر دار المعارف بمصر .

وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالنـاس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة . فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منـذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين[1] .

وتجهز الجيش للمسير ، وخرج الخليفة يعفر قدميه في سبيل الله يودع الجيش ، ويوصي سعداً من جديد قائلاً : إني قـد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به . واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنمـا اطاعة من إطاعة ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء منها السر ، ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبـداً حببه ، وإذا أبغض عبداً بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ، ممن يشرع معك في أمرك[2] .

وهكذا انطلق سعد بن أبي وقاص (أحـد العشرة المبشرين بالجنـة) بجيش المسلمين الذي بلغ تعداده يومهـا بضعة وثلاثون ألف مجاهد إلى أرض العراق[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري - جـ٣ ص«٤٨٣». الناشر دار المعارف بمصر.

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري - جـ٣ ص «٤٨٤» الناشر دار المعارف بمصر.

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري - جـ٣ ص «٤٨٧».الناشر دار المعارف بمصر .

كان المكان الذي اختاره سعد لملاقاة الفرس ، هو موضع القادسية من أرض العراق .

وقد اختار سعد هذا المكان بناء على اقتراح « المثنى بن حارثة » الذي خبر تلك الأرض وقد حارب فيها مع جنده في عدة معارك ، وعرف مسالكها ودروبها ، فكتب إلى سعد قبل وفاته يختار له هذا الموضع لأنه على تخوم أرض العراق ، بعيداً عن مدن الفرس ، قريباً من الصحراء حيث تبقى خطوط تراجع الجيش مؤمنة ، لا خطر فيه من أي التفاف أو خديعة أو مكيدة[1] .

بقي الخليفة في المدينة على اتصال دائم بسعد ، يكتب اليه يسأله عن أحواله وأحوال جنده ، وما تناهى لسمعه من أخبار عدوه ، ويعيد عليه وصاياه ، ويأمره بما يراه خيراً له ولجنده . على أن عمر كان يجهل الموضع الذي اختاره سعد لملاقاة الفرس ، فكتب اليه ليصف له هذا الموضع ليستطيع بعد ذلك أن يدلو له برأيه ويوجهه الوجهة الصحيحة وقال له : أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسنة ، ومن غفل فليحدثها ، والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسنة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، واكتب إلي أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، ولا تدل بشيء . واعلم أن الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٣ ص ٤٩٠ـ٤٤ . الناشر دار المعارف بمصر .

له ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم[1] .

فرد سعد على كتاب عمر يصف له المكان الذي اختاره لقتال الفرس ويعلمه بما تناهى لسمعه من تعيين القائد « رستم » على رأس جيش الفرس ويبين له بأن المسلمين يقفون مستعدين لقتال عدوهم متى حان الوقت المناسب وقال له : « إن القادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[2] والحيرة ، وما عن يمين القادسية أهل السواد قبلي ألب لأهل الفرس فارس قد خفوا لهم ، واستعدوا لنا . وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم ، فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ، ما قدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء ، وخير القدر في عافية[3] .

وصلت أخبار تحركات المسلمين وتجمع جيشهم لملك الفرس « يزدجرد » ، فعزم على تجهيز جيش قوي لقتال المسلمين وجعل على رأس هذا الجيش القائد الفارسي « رستم » .

على أن « رستم » لم يكن راغباً في القتال ، ولا في قيادة جيش الفرس . وسأل الملك « يزدجرد » أن يختار غيره لقيادة هذا الجيش وبيّن له أنه يرى أن لا يعد الفرس أنفسهم لمعركة واحدة حاسمة مع المسلمين ، بل أن تكون هناك عدة معارك وأكثر من موقعة ، مما يضعف جيش المسلمين ، ويستنفذ قواه مما يساعد الفرس على الانتصار عليهم في آخر الأمر حتى ولو لحقت بهم بعض الهزائم في البداية .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص «٤٩٢» . الناشر : دار المعارف بمصر.

(٢) الخورنق : قصر كان بظهر الحيرة . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٢ ص «٤٠١» . الناشر : دار صادر ببيروت .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ ٣ ص« ٤٩٣ » . الناشر دار المعارف بمصر .

ولكن ملك الفرس « يزدجرد » كان مصراً على رأيه ، وعلى تولية رستم قيـــادة الجيش ، وأراد أن تكون معركة حاسمة بين الفرس والمسلمين . ولم تُجْدِ محاولات « رستم » ، وأذعن أخـيراً لأوامر الملك وانطلق بجيش الفرس نحو تجمعات المسلمين في القادسية .

كان من عادة المسلمين ألا يبدأوا عدوهم بالقتال إلا بعد أن يدعوه إلى اثنتين : الإسلام أو الجزية ، فإن أبى فليس أمامهم إلا القتال ..

وهذا ما فعله سعد قبل قتاله للفرس . فقد وفدت عدة وفود إسلامية إلى ملك الفرس وإلى رستم تدعوهمـــا إلى الإسلام أو الجزية ، ولكن الفرس بقوا على موقفهم يريدون قتال المسلمين وردهم عن أرض العراق؟! ولم يبق للمسلمين أخيراً إلا أن يحكموا السيف بينهم وبين الفرس .

وكانت آخر الوفود التي أتت رستم في معسكره ، وفد جمع فيه سعد من دهاة العرب ، وأعرقها نسباً ، وأكثرها شجاعة ، وأفصحها كلاماً ، سبعة رجال هم : المغيرة بن شعبة ، وبسر بن أبي رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفة بن محصن ، وربعي بن عــامر ، وقرفة بن زاهر التميمي ، والوائلي ومذعور بن عدي العجلي ، ومعبد بن مرة العجلي .

على أن هذا الوفد لم يذهب دفعة واحدة لمقابلة « رستم » ، بل خرج في البداية « ربعي بن عامر » ، وفي اليوم التـــالي كان دور « حذيفة بن محصن » ، وخرج بعده « المغيرة بن شعبة » . وأخيراً جـاء رجال بقية الوفد ، وقد بقوا أربعة ، دفعة واحدة للقاء « رستم » في محاولة أخيرة لاقناعـــه بشروط الصلح وقالوا له : ان أميرنا يقول لك : إن الجوار يحفظ الولاة ، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، العافية أن تقبل ما دعاك الله اليــه ونرجع إلى أرضنا ، وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض ، إلا أن داركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة

لكم دوننا ، وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم ، أو قوي عليكم، واتق الله يا رستم ، ولا يكونن هلاك قومك على يديك ، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه وتطرد الشيطان عنك[١] .

إلا أن رستم بقي على اعتداده وصلفه وغروره ، ولم يرض بما عرضه عليه المسلمون ، وأرادها حرباً بينه وبينهم ، فكان له ذلك ..

وقال « رستم » للوفد قبل أن يغادره : أتعبرون الينا أم نعبر اليكم؟ فأجابوه : بل اعبروا الينا[٢].

كان يفصل بين جيش المسلمين وجيش الفرس ، نهر العتيق ، عليه قنطرة ، أراد رستم أن يعبر عليها جيشه ، فلم يرض سعد بذلك وقد انتزعها جنده من الفرس ، وأرسل إلى رستم رافضاً أن يستخدم جنوده القنطرة في عبورهم وقال له : لا ، لا كرامة ! أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم ، تكلفوا معبراً غير القناطر[٣] .

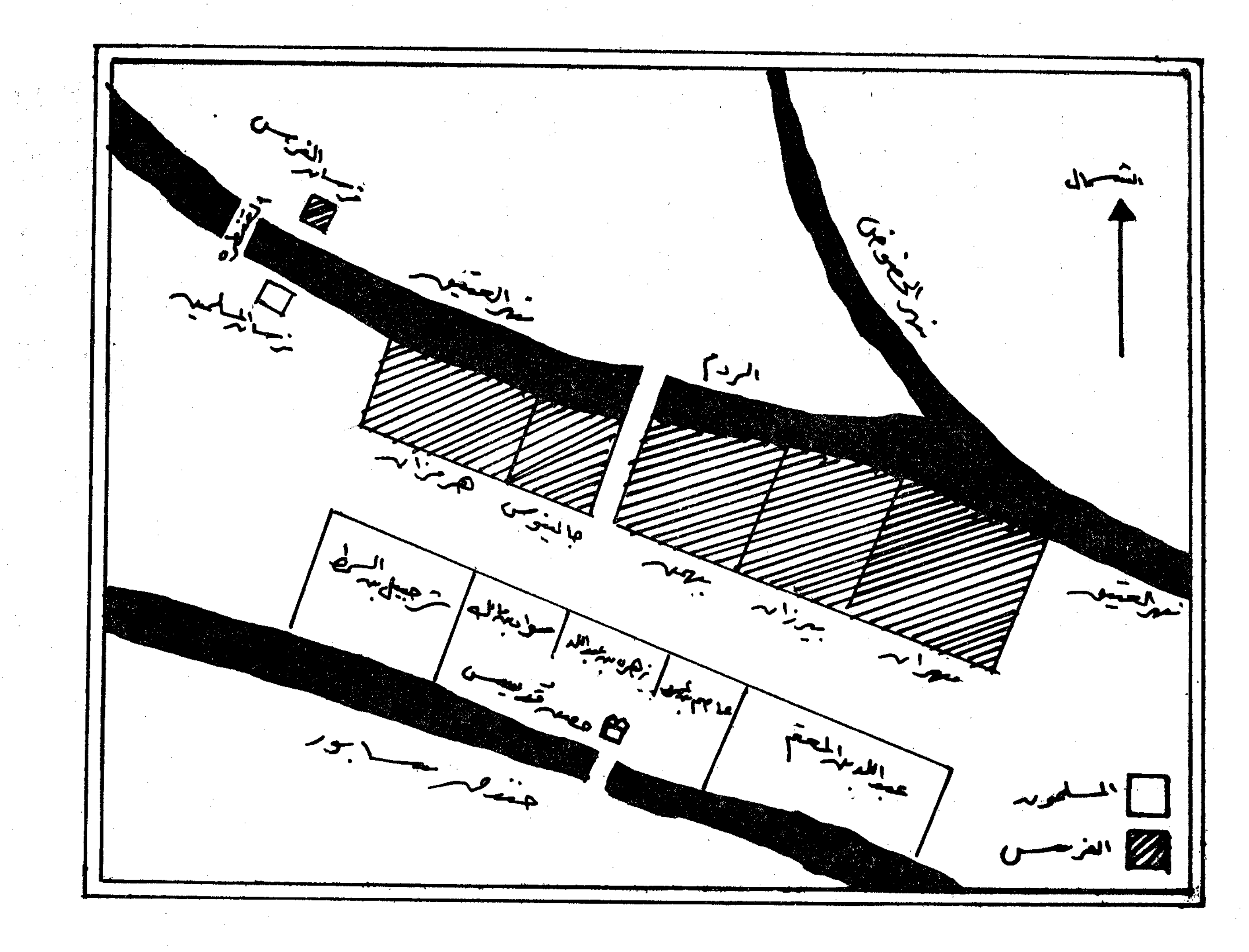
فأمضى الفرس ليلتهم يردمون في العتيق - وقد جفت مياهه - ما في متناول أيديهم من ثياب وتراب وقصب ، حتى تمكنوا من عبوره ، وكان أن عبروه في الصباح ليقفوا بجيشهم مقابل جيش المسلمين .

لقد كان تعداد جيش الفرس في معركة القادسية ، مائة وعشرين الف مقاتل ، ومن المتبوعين ثمانين ألف مقاتل ، وبذلك بلغ مجموعهم مائتي ألف مقاتل[٤] .

وقد صحب الفرس معهم الفيلة ، ليشركوها في المعركة ، فكان معهم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص « ٥٢٥ - ٥٢٦ »الناشر دار المعارف بمصر
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٥٢٩» الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٥٢٩» الناشر دار المعارف بمصر .
(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٥٠٥» الناشر دار المعارف بمصر .



الشمال
نهر العتيق
القنطرة
نساء الفرس
نساء المسلمين
الردم
هرمزان
جالينوس
بهمن
بيرزان
مهران
شرحبيل بن السمط
زهرة بن عبد الله
عاصم بن عمرو
عبد الله بن المعتم
خندق سابور
المسلمون
الفرس

ثلاثة وثلاثون فيلاً ، فيها فيل سابور الأبيض الذي كان أقدم وأعظم فيلة الفرس[1] .

وزع رستم جيشه بترتيب قتالي ليواجـه جيش المسلمين الذي يقف أمامه : فكان على ميمنة جيش الفرس القائد « هرمزان » ومعه ثمانيـة وعشرون ألف مقاتل وسبعة أفيال . يليه القائد « جالنوس » ومعه ستة وعشرون ألف مقاتل وستة أفيال .

وفي قلب الجيش كان يقف القائد « بهمن » ومعه عشرون ألف مقاتل وخمسة أفيال ، يليه القائد « بيرزان » ، ومعـه أربعة وعشرون ألف مقاتل وستة أفيال . أما ميسرة الجيش فكان هناك أربعة وعشرون ألف مقاتل وستة أفيال .

وقد أقـــام رستم معسكره في قلب الجيش ، ضمن قطاع بهمن . وبقي هناك من المتبوعين من هو قائم على خدمة الجنود والقادة ، فيستكمل بذلك عدد جيش الفرس ليصبح مائتي ألف جندي .

أمـا جيش المسلمين الذي بلغ تعداده بضعة وثلاثون ألف مقاتل ، فقد وزع سعد قادة المسلمين على جناحين وقلب ومقدمه وطلائع الجيش على الترتيب التـــالي : كان على مقدمة الجيش « زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية » . وعلى الميمنة « عبد الله بن المعتم » ، وعلى الميسرة « شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندي » . وعلى المؤخرة « عاصم ابن عمرو التميمي » (شقيق القعقاع) . وعلى الطلائع « سواد بن مالك التميمي » .

وكان أفراد كل قبيلة يجتمعون إلى بعضهم ليحاربون سويـة ، وإذا عرفنا تفاخر القبائل فيما بينها بمآثر أفرادها أثنـاء القتال وفي الحروب

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص «٥١٦» الناشر دار المعارف بمصر .

لعرفنا ما يعنيه تجمع أفراد كل قبيلة إلى بعضهم من إثارة المزيد من الحماس والنخوة والشجاعة فيما بينهم .

أما سعد بن أبي وقاص ، قائد جيش المسلمين ، فقد كان مريضاً بعرق (النسا) ، وجلد مقعده طافح بالحبوب والدمامل ، مما منعه من ركوب الخيل ، وحتى من الجلوس فلم يستطع أن يشترك بنفسه ومع أفراد جيشه في القتال بل كان يوجه جيش المسلمين وهو مشرف على أفراده من قصر في القادسية يقال له (قُديس) ، وقد عين سعد خالد ابن عرفطة ، لينقل أوامره إلى أفراد الجيش .

يوم أرماث :

كان أول يوم من أيام معركة القادسية في شهر محرم من العام الرابع عشر للهجرة[١] ، وقد وقف سعد يخطب في جند المسلمين بعد أن قضى على الشغب الذي أثاره بعضهم (وكان ممن أثار الشغب ، أبو محجن الثقفي) ، بسبب تعيين « خالد بن عرفطة » ، وسيطاً بين سعد وأفراد جيش المسلمين . وقال سعد : إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون[٢]) ، إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها ، وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٥٣١ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) سورة الأنبياء ١٠٥ .

أحداً إلى أجله ، وأن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم ، وتوبقوا آخرتكم[1] .

وبيّن سعد للمسلمين من أفراد جيشه ما حمله على جعل خالد بن عرفطة وسيطاً بينه وبينهم وقال لهم : إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون[2] فإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمري ، ويعمل برأيي[3] .

وما أن انتهى سعد من خطبته حتى انطلق أمراء كل لواء من ألوية جيش المسلمين يعظ جنده ، ويحمسهم ويشجعهم ويذكرهم بما أعد الله للمجاهدين من ثواب عظيم وللشهداء من نعيم مقيم .

وحان الوقت الآن لتبصير المسلمين بخطة القتال ، فخاطبهم سعد قائلاً : الزموا مواقفكم ، لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة ، فكبروا واستعدوا . واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنما اعطيتموه تأييداً لكم . ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ، ولتستتم عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله[4] .

وخرج بعد ذلك غلام سعد ، وكان من قراء القرآن الكريم ، يقرأ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٥٣١-٥٣٢ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) يقصد الحبوب .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٥٣٢ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٤) « « « : « « جـ٣ ص « ٥٣٥ » « « «

للجند من سورة الجهـــاد ، سورة (الأنفال) . فاطمأنت بتلك القراءة قلوب الجند ، وهدأت نفوسهم ، وشعروا بالسكينة تغمرهم ، ولم يعـد يشغلهم إلا أن يبدأوا القتال .

وسمعوا تكبيرة سعد الأولى ، وترددت أصداء هـــذه التكبيرة في جيش المسلمين . وكبر سعد التكبيرة الثانية ، فتجهز المسلمون واستعدوا .. ولما سمعوا تكبيرة سعد الثالثة ، خرج فرسان الجيش ليبدأوا القتـال التقليدي .

كان أول فارس خرج من بين صفوف المسلمين ، غالب بن عبد الله الأسدي ، فخرج له « هرمز » من بـــين صفوف الفرس ، واشتبك الفارسان ، واستطاع غالب أن يأسر هرمز ليعود به إلى صفوف جيش المسلمين ، وليسلمه إلى سعد كأسير .

وخرج بعد ذلك « عاصم بن عمرو » — شقيق القعقاع - ، وطارد أحد فرسان الفرس الذي كان قريباً منه ، فهرب منه الفارسي إلى زملائه فلحق به عاصم ، ليصادف في وجهه أحد جنود الفرس على بغلة ، وما أن رأى ذلك الجندي عاصم يتجه نحوه والسيف في يده حتى ترك بغلة ، واحتمى بزملائه الفرس ، فأخذ عاصم البغل وعاد به إلى صفوف جيش المسلمين ، وفوجيء المسلمون بالأطعمة التي كان يحملهـا البغل ، وعرفوا بعد ذلك أن الجندي ما هو إلا طباخ رستم ، وان ما يحمله البغل كان طعام رستم يومها .

وأرسل عاصم البغل وما عليه إلى سعد ، فرد سعد البغل والأطعمة إلى عاصم ليأكلها هو وجنوده ، فهي غنيمته وهو أحق بها من غيره .

وخرج بعد ذلك فارس من بين صفوف الفرس ، ينادي متحدياً أن يخرج له أحد من فرسان المسلمين ، وصادف أن كان عمرو بن معديكرب

الزبيدي ، يمر بين صفوف المسلمين يحمس جنده ويشجعهم ، فرآه الفارسي فرماه بسهم أصاب قوس عمرو ، فالتفت اليه عمرو وقد استشاط غضباً ، وانطلق نحوه ، ولحق به ، واشتبك معه ، ثم أمسكه من حزامه وحمله ليضعه على فرسه ، وانطلق به نحو صفوف المسلمين ، ثم ألقى به أرضاً ، وجثم فوقه ، واستل خنجره وذبحه .. ليلتفت بعدها إلى أصحابه ويقول لهم : هكذا فاصنعوا بهم . فرد عليه أصحابه : يا أبا ثور من يستطيع أن يصنع كما تصنع[1] ؟

وبدأ الفرس بعدها هجومهم ، وأول ما استهدف هذا الهجوم قبيلة (بجيلة) في ميسرة جيش المسلمين ، وكان يقود هجوم الفرس قائد جناح ميمنة جيشهم « هرمزان » وجنده ، يسانده « جالنوس » ، فكانت السهام تنهال على رؤوس أفراد قبيلة بجيلة من أقواس جند الفرس الذين امتلأت بهم الصناديق التي وضعت على ظهر الفيلة ، كما أفزع خيل المسلمين منظر الفيلة ، فهي لم تألفها من قبل ، ولم ترها في أرض المعارك سابقاً ، فكانت الخيل تنفر ولا يملك الفارس المسلم عنانها ، واشتد ضغط الفرس على قبيلة بجيلة ، ورأى سعد ما يصيب تلك القبيلة فأرسل إلى قبيلة (أسد) التي تقف بجانب بجيلة يقول لها : ذببوا[2] عن بجيلة ومن لافها من الناس[3]. فحملت قبيلة بني أسد على الفرس تساند قبيلة بجيلة ، وتخفف ضغط الفرس عنها ، وكان طلحة بن خويلد من فرسان بني أسد ، ينادي قومه ويشجعهم والتقى طليحة بالقائد الفارسي « جالنوس » ، واشتبك معه وسرعان ما وجه اليه طليحة ضربة قوية من سيفه ، شقت مغفره .

واستطاع بنو أسد أن يردوا الفرس ، ويشدوا من أزر قبيلة بجيلة ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ٣ص«٥٣٧». الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) ذببوا : أي دافعوا .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص « ٥٣٨ » الناشر دار المعارف بمصر .

ولكن رستم أوعز لبهمن وجنده في قلب جيش الفرس بالهجوم على ميسرة جيش المسلمين، ليزيد الضغط ويكثفه على الميسرة.

وكان جناح جيش المسلمين الأيمن، وقلب الجيش، يقفان في مواجهة جيشي مهران وبيرزان، ساكنين لم يبدأوا القتال بعد، فسعد لم يكبر تكبيرته الرابعة وهم ملزمون بألا يبدأوا القتال إلا حين يكبر سعد.

على أن سعداً وجد بأن الوقت قد حان لالتحام كلا الجيشين، وفي ذلك ما يخفف عن ميسرة جيش المسلمين، فكبر التكبيرة الرابعة، فحمل جناح المسلمين الأيمن، وقلب الجيش على الفرس، وقاموا يخففون من ضغط الفرس على ميسرة الجيش.

على أن وجود الفيلة وما عليها من صناديق مزدحمة بجند الفرس الذين يرشقون المسلمين بالسهام ويرمونهم بالرماح من علٍ، ظل مشكلة كبيرة، تجشم منها المسلمون العناء الكبير، ورأى سعد ما تفعله تلك الفيلة وجنودها بفرسان المسلمين، وكيف أنها تفزع خيلهم، فأرسل إلى عاصم بن عمرو يقول له: يا معشر بني تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ فردوا عليه: بلى والله[1].

وأوعز عاصم لرماة قومه بأن يشاغلوا جند الفرس على ظهر الفيلة، واتفق مع أصحابه على الالتفاف من خلف الفيلة لقطع أذنابها والحبال التي تشد بها الصناديق إلى ظهورها.

ونجحت خطة عاصم، فرماة المسلمين شاغلوا جند الفرس، والتف هو وأصحابه خلف الفيلة، فقطعوا أذنابها وحبال الصناديق فصرخت الفيلة وسقطت الصناديق بجنودها من على ظهورها، فحمل فرسان المسلمين على اولئك الجند وأعملوا فيهم بالسيوف والرماح.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: للطبري جـ ٣ ص «٥٤٠» الناشر دار المعارف بمصر.

وغربت الشمس عن أرض المعركة، واستطاع المسلمون في نهاية اليوم الأول من أيام المعركة، رد الفرس إلى مواقعهم الأولى، وصد هجومهم، وقد تحملت قبيلة بجيلة وقبيلة بني أسد العبء الأكبر من القتال في هذا اليوم، كما نجحت قبيلة بني تميم بقيادة عاصم بن عمرو، في القضاء على الكثيرين من جند الفرس.

أما لماذا أطلق المؤرخون على هذا اليوم من أيام المعركة اسم أرماث؟!! فلا يوجد تفسير واضح لذلك.. ولعل المقصود منه: هو أن الشدة في هذا اليوم أصابت المسلمين والفرس على السواء، ولم تحسم المعركة لصالح أي منهما. لأن رمث الشيء بالشيء في اللغة يعني مخالطة الشيء للشيء[1].

يوم أغواث:

وفي اليوم الثاني من أيام المعركة، شغل المسلمون مع تباشير الفجر بنقل جثث إخوانهم الذين استشهدوا في أرض المعركة، وبنقل الجرحى إلى العذيب[2]، حيث كانت نساء المسلمين، يقمن على العناية بالجرحى ويدفنّ من استشهد من المجاهدين.

وما أن أشرقت الشمس ونشرت أشعتها على أرض المعركة حتى استعد الجيشان للقتال من جديد، وسرعان ما بدت في الأفق طلائع جيش العراق العائد من الشام، وكان على رأس جند الطلائع القعقاع ابن عمرو.

---

(١) القادسية: أحمد عادل كمال ص «١٤٥» الناشر دار النفائس بيروت.

(٢) العذيب: تصغير العذب، وهو الماء الطيب، وهو ماء بين القادسية والمغيثة (منزل في طريق مكة)، بينه وبين القادسية أربعة أميال وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً.
معجم البلدان. لياقوت الحموي. جـ ٤ ص «٩٢». الناشر دار صادر بيروت.

مر بنا كيف أن الخليفة عمر (رضي الله عنه) ، أمر أبا عبيدة بإعادة جيش العراق إلى العراق ، وأن أبا عبيدة امتثل لأوامر الخليفة وجهز الجيش وأمره بالمسير إلى أرض العراق[1] .

وكان تعداد الجيش العائد ستة آلاف مجاهد ، كان منهم خمسة آلاف عدنانيين من ربيعة ومضر ، وألف قحطانيين من أفناء أهل حجاز اليمن من فراء وهمدان وغيرهم .

وقد وضع أبو عبيدة على رأس هذا الجيش « هاشم بن عتبة بن أبي وقاص » ، وعلى مقدمته « القعقاع بن عمرو » ، وعلى مجنبتيه « قيس بن هبيرة بن يغوث المرادي » ، و« الهزهاز بن عمرو العجلي »[2] .

انطلق القعقاع بمقدمه جيش العراق نحو القادسية ، وكان تعداد جند المقدمة ألف مقاتل ، قسمهم القعقاع إلى عشرات ، وأمرهم أن ينطلقوا بهذا الشكل ، كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة أخرى وهكذا ...

وكان القعقاع على رأس أول عشرة ، وما أن وصل إلى أرض المعركة حتى استبشر جند المسلمين وتشجعوا ، ووقف هو فيهم يبشرهم بمزيد من المدد ويقوي عزيمتهم ويقول لهم : يا أيها الناس، إني قد جئتكم في قوم ، والله أن لو كانوا بمكانكم ، ثم أحسوكم حسدوكم حُظْوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع[3] .

وسرعان ما بدأ بعدها القتال ، وخرج القعقاع من بين الصفوف ونادى : من يبارز ؟ فخرج اليه ذو الحاجب ، فقال له القعقاع من

---

(١) راجع صفحة ٦٥ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص«٥٤٣» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) « « « : « جـ٣ ص«٥٤٣» « « « «

أنت ؟ فأجابه : أنا بهمن جاذويه ، فصرخ القعقاع : يا لثأرات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر . واندفع نحو بهمن ، واشتبك معه ، وسرعان ما قتله . ووقف لينادي من جديد : من يبارز ؟

فخرج له هذه المرة اثنان من فرسان الفرس : البيرزان والبندوان ، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان ، ليكفيه أحد الفارسين .

واشتبك القعقاع مع البيرزان ، وضربه ضربة قوية أطاحت برأسه ، وتمكن « الحارث بن ظبيان » من قتل « البندوان » أيضاً[١] .

ووصلت بقية جند مقدمة جيش العراق إلى أرض المعركة ، فازداد استبشار المسلمين ، وقويت عزيمتهم ، ووقف القعقاع يقول لهم : يا معشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها ؟![٢] .

وهكذا بدأ ثاني يوم للمعركة بالمبارزات التقليدية ، ولم يطل الوقت ليلتحم الجيشان ويشتبكا في معركة ضارية على أن الفرس لم يتمكنوا في هذا اليوم من دفع فيلهم إلى أرض المعركة ، فأربطة الصناديق التي توضع على ظهرها قطعها بنو تميم في أول أيام المعركة ، وشغل جنود الفرس بصنع أربطة بدل تلك التي قطعت ...

واستغل المسلمون هذه الفرصة ، فالفيلة مختفية من أرض المعركة وليس هناك ما يفزع الخيل ، وفرسان المسلمين قادرون على الإمساك بأعنتها وقيادتها كما يريدون .

على أن القعقاع ابتكر حيلة ذكية ، فقد عمد إلى بعض ابل جيش المسلمين فألبسها وجللها بأقمشة مبرقعة وجعل عليها بعض الفرسان ودفع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص«٥٤٣» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « : « جـ٣ ص«٥٤٣» « « «

بها إلى أرض المعركة ، فكانت بتحركها تثير الفزع في قلوب الفرس ،وتجفل خيلهم ، وأصاب الفرس بذلك ما أصاب المسلمون في أول أيام المعركة[1] .

ولما رأت بقية القبائل أثر حيلة القعقاع ، حذت حذوه فألبست بعض إبلها وجللتها بأقمشة مبرقعة مما جعل خيل الفرس تفر من أرض المعركة مثيرة البلبلة والفزع بين الصفوف .

لقد حمل القعقاع في هذا اليوم من أيام المعركة ثلاثين حملة ، كلما لحق به عشرة من أصحابه ، يحمل حملة جديدة وهو يرتجز :

أُزعجهُمُ عمداً بها ازعاجاً أطعُنُ طعناً صائبـاً ثجاجاً

أرجو به من جنة أفواجاً[2]

وفي كل حملة حملها القعقاع كان يقتل فارساً من فرسان الفرس وكان آخر من قتلهم : بزرجمهر الهمذاني ، وأنشد القعقاع في ذلك :

حَبوتهُ جيّـاشةً بالنفس هَدّارة مثل شُعاع الشمس

في يوم أغواثٍ فَليل الفُرسِ أنخسُ بالقوم أشدّ النّخسِ

حتى تفيض مَعشري ونفسي[3]

وأرسل الخليفة من المدينة إلى سعد في القادسية ، أربعة سيوف ، وأربعة خيول ، ليوزعها على من أحسن البلاء في المعركة ، وقدم من ضروب الشجاعة والمقدرة ما يستحق معه أن يكافىء .

وكان نصيب القعقاع من هدية الخليفة ، فرس من الخيول الأربعة ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ٣ ص«٥٤٥» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص « ٥٤٦ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) » » . جـ ٣ ص «٥٤٧» » » » »

وقد أنشد القعقاع في ذلك :

لم تعرف الخيل العِراب سواءنا   عَشيّةَ أغواثِ بجنب القوادس

عشيّة رُحنا بالرماح كأنها   على القوم ألوان الطيور الرّسارس[1]

واستمر القتال في هذا اليوم من أيام المعركة ، حتى بعد غروب الشمس ، وكان سعد يستدل على سير المعركة من أصوات المسلمين التي تعلو مكبرة ويصله صداها في ظلمة الليل .

وانقضى اليوم الثاني من أيام المعركة والطرفان المتحاربان على موقفهما وفي مواقعهما الأولى لم تتبدل ولم تتغير . وأطلق المؤرخون على هذا اليوم من أيام المعركة ، اسم (أغواث) ، ولعل المقصود بهذه التسمية ، أنه في هذا اليوم بلغ الغوث المجاهدين بوصول القعقاع وطلائع جيش العراق القادم من الشام . كما أن الفيلة غابت عن أرض المعركة في هذا اليوم مما ساعد المسلمين وجعلهم يتصدون لهجوم الفرس[2] .

يوم عماس :

لم يبدأ المسلمون القتال في هذا اليوم إلا بعد أن نقلوا جثث شهدائهم ليدفنوها ، كما نقلوا الجرحى إلى (العذيب) ، لتعنى بهم نساء المسلمين. بخلاف الفرس الذين لم يعتادوا أن ينقلوا جثث قتلاهم ، بل كانوا يتركونها في أرض المعركة لأن دينهم يحرم دفن الموتى ؟!!؟[3]

وعمد القعقاع في هذا اليوم إلى حيلة جديدة يشد بها أزر المسلمين ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ٣ ص « ٥٤٥ » ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) القادسية : أحمد عادل كمال . ص « ١٦٣ » الناشر دار النفائس بيروت.
(٣) القادسية : أحمد عادل كمال ، ص « ١٦٧ » . الناشر دار النفائس بيروت .

ويقوي من معنوياتهم ، ويجدد نشاطهم ، فقد أوعز القعقاع لجنده الذين قدموا معه من الشام ، لينطلقوا إلى المكان الذي أتوا منه في ثاني أيام المعركة وأمرهم أن يقضوا ليلتهم هناك وما أن يطلع الصبح حتى يعودوا إلى أرض المعركة ، وكأنهم مدد جديد وصل من أرض الشام ، ليساعد جند المسلمين في القادسية ...

وقال القعقاع لأصحابه : إذا طلعت الشمس ، فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة ، فليتبعها مائة ، فإن جـاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجداً [١] .

وانطلق جند القعقاع تنفيذاً لأوامره إلى ذلك المكان ، وما أن أشرقت الشمس على أرض المعركة ، حتى لاح في الأفق فرسان المسلمين يتجهون إلى أرض المعركة – وكانوا جند القعقاع – ، فكبر المسلمون في القادسية ، وقد حسبوا بأن بقية جيش هاشم القادم من أرض الشام قد وصل .

وأمر « عاصم بن عمرو » – شقيق القعقاع – ، جنوده بمثل ما أمر القعقاع جنوده ، فكان جند عاصم يفدون إلى أرض المعركة ، فيبعث مرآهم في قلوب المسلمين القوة ، ويشد من عزيمتهم .

وما أن عاد جنـد القعقاع إلى أرض المعركة ، حتى وصل جيش هاشم من أرض الشام ، وعلم هاشم بما فعله القعقاع فعمد هو أيضاً إلى تقسيم جنده إلى جماعات كل جماعة تضم سبعين رجلاً ، وأمرهم أن ينطلقوا إلى أرض المعركة ، وما أن رآهم جنـد المسلمين في القادسية ، حتى ازدادوا استبشاراً وفرحاً ، وبدأوا يعدون العدة لملاقاة الفرس .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٣ ص «٥٥١» . الناشر دارالمعارف بمصر .

وقد قدر الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، بأن صنيعة القعقاع في اليومين الثاني والثالث من أيام المعركة قد أسهمت في ترجيح كفة المسلمين ، وساعدتهم على انتصارهم وقال : فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألهم القعقاع في اليومين ، وأتاح لهم بهاشم ، كسر ذلك المسلمين[1] .

دفع الفرس بأفيالهم من جديد إلى أرض المعركة في هذا اليوم ، بعد أن صنعوا أربطة جديدة ، وربطوا الصناديق عليها ، وملأوها بالجنود ، وأحاطوها بالفرسان منعاً لتكرار ما حدث في أول أيام المعركة .

وبعث سعد إلى بعض أسرى الفرس ، الذين أسلموا وانضموا إلى جيش المسلمين ، يسألهم عن مقتل الفيلة ، قال لهم : هل لها مقاتل ؟ فقالوا له : نعم المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها[2] .

فأرسل سعد إلى القعقاع وشقيقه عاصم وقال لهما : اكفياني الأبيض[3] يعني أن يقتلا له الفيل الأبيض لأن معظم الفيلة تألف هذا الفيل وتسير بازائه دائماً .

كما أرسل سعد إلى « حمال بن مالك » ، و« الربيل بن عمرو » وقال لهما : اكفياني الفيل الأجرب .

وانطلق القعقاع وشقيقه عاصم نحو الفيل الأبيض ، وكانت المعركة قد بدأت بمبارزات تقليدية ، وجرب عمرو بن معد يكرب ، أن ينال من أحد الفيلة ، وقال لأصحابه : إني حامل على الفيل ومن حوله ، فلا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ ص « ٥٥٢ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « : « . ج ٣ ص « ٥٥٥ » « « «
(٣) « « « : « . ج ٣ ص « ٥٥٥ » « « «

تدعوني أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور ، فإني لكم مثل أبي ثور ! فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف[1] .

على أن عمرو لم ينجح فيما سعى اليه ، وأدركه بعد ذلك أصحابه وقد أحاط به الفرس ، وقتلوا فرسه ، فكان يقاتل راجلاً . وما أن جعل له أصحابه منفذاً من بين جنود الفرس الذين أحاطوا به ، حتى تمكن من أحد الفرسان ، وجذبه من قدمه وألقاه أرضاً وامتطى فرسه وعاد من جديد لينضم إلى أصحابه .

عزم القعقاع وشقيقه عاصم على النيل من عيني الفيل الأبيض في البدء ، فاختارا رمحين ليّنين ، وانطلقا نحو الفيل يحوط بهما أصحابهما ، ليكفوهما فرسان الفرس الذين يدافعون عن الفيل .

وسنحت الفرصة للقعقاع وشقيقه عاصم ، والفيل الأبيض متشاغل بالفرسان الذين يقتتلون من حوله ، فوضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل ، فهاج الفيل وانتفض ، ورمى سائسه من على ظهره ، وأسرع القعقاع بعدها ليستل سيفه ويقطع خرطوم الفيل ، فوقع الفيل على جنبه وسقط الجنود الذين كانوا في الصندوق على ظهره ، فهجم عليهم أصحاب القعقاع وقتلوهم[2] .

أما حمال والربيل فقد توزعا المهمة بينهما ، وقال حمال للربيل : اختر إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه ، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره[3] .

فاختار الربيل أن يضرب الخرطوم ، وبقي لحمال أن ينال من عين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص « ٥٥٤ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص « ٥٥٥ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص « ٥٥٥ » الناشر دار المعارف بمصر .

الفيل . وحمل حمال والربيل ومعهما أصحابهما على جند الفرس المحيطين بالفيل الأجرب ، ولاحت لهما الفرصة وسائس الفيل مشغول بالقتال من حوله ، والفرسان مشتبكون فيما بينهم . فأسرع حمال ورمى رمحه في عين الفيل مما جعله يسقط على الأرض .. على أن سائسه نهض به بعدها ، ليسرع ربيل ويعاجله بضربة قوية من سيفه على خرطومه فيقطعه، على أن سائس الفيل انتبه إلى الربيل فضربه بالطبرزين الذي في يديه والذي اعتاد أن يسوق الفيل بواسطته ، فأصاب الضربة وجه ربيل فحطمت أنفه [1] .

على أن الفيل الأجرب فر بعدها من أرض المعركة ، وقد فقئت عينه وقطع خرطومه ، وكان في أثناء فراره يصيب جند الفرس ويدوسهم ويبعث الذعر في نفوسهم ، أما الفيل الأبيض فقد بقي مطروحاً على أرض المعركة ، يناله المسلمون بسيوفهم ورماحهم وهو عاجز عن الحركة لا يبصر ما حوله ولا يستطيع أن يدفع عنه أحداً .

وما أن بدأت الشمس تغرب ، حتى كانت أرض المعركة خالية من فيلة الفرس ، ليبقى جند الفرس وجهاً لوجه أمام جند المسلمين ، كل يشد على الآخر ، يرجو النصر ويسعى للنيل من عدوه .

وأنشد القعقاع في ذلك اليوم :

حضّض قومي مضرحيُّ بن يعمر

فلله قومي حين هزُّوا العواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا

لأهل قُدَيس يمنعون المواليا[2]

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص « ٥٥٦ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) خام : نكص وجبن .

فإن كنتُ قاتلت العدوّ فللته

فإني لألقى في الحروب الدّواهيا

فيولاً أراهـــا كالبيوت مغيرةً

أسمّل أعيـــاناً لهـــا ومآقيا(1)

وانقضى اليوم الثالث من أيام المعركة ، وكلا الطرفين على موقفه ، وفي مواقعه القديمة ، ونال المسلمون في هذا اليوم مـــا نال الفرس ، فالقتال كان شديداً وقاسياً على الطرفين ، وشدته لم ترحم أحداً ...

أما لماذا أطلق المؤرخون على هذا اليوم من أيام اسم (عماس) ؟! ففي اللغة يقال : عَمِس اليوم وعَمُس إذا اشتد وأظلم ، ويوم عماس شديد وحرب عماس وعميس شديدة ، وليـــل عماس شديد الظلام . والعماس الأسد الشديد . ولقد كان يوم عماس يوماً شديداً يفسر لنا اسمه على هذا الضوء(2) .

ليلة الهرير :

في تلك الليلة التي تلت انقضاء ثالث يوم من أيام المعركة ، لم يسمح رستم لفرسانه بمنازلة فرسان المسلمين ، فقد رأهم يسقطون تباعاً بسيوف فرسان المسلمين ، بل عمد إلى تكتيل صفوف فرسانه وجنده المشاة ، ليقاتلوا سوية مع بعض ، وليتصدوا لأي هجوم قد يشنّ عليهم .

وبدأ القتال في تلك الليلة بالتراشق بالسهام ، كل طرف يرمي على الآخر في محاولة لاصابـــة أكبر عدد من الجنود . وأصاب سهم فارسي أحد أصحاب القعقاع ، وهو « خالد بن يعمر التميمي » ، فتأذى القعقاع

---

(1) تاريخ الرسل والملوك: للطبري ج3 ص « 557 » الناشر دار المعارف بمصر .
(2) القادسية : أحمد عادل كمال . ص «176» . الناشر دار النفائس بيروت .

لاصابة صاحبه ، وحزن لمقتله ، ورأى نفسه رغم ذلك واقفاً في مكانه لا يقاتل الفرس ، فزاد ذلك من غضبه ، وجعله يندفع نحو الفرس هو وأصحابه وقبل أن يأذن لهم سعد بالقتال ، وأنشب القتال وهو ينشد :

سقى الله ياخوصاءُ قبر ابن يعمر | إذا ارتحل السُّفار لم يترحَّل

سقى الله أرضاً حلـَّها قبرُ خالدٍ | ذِهابَ غوادٍ مُدجنات تُجلجل

فأقسمتُ لا ينفكُ سيفي يحُسُّهم | فإن زحل الأقوام لم أتزحَّل[1]

ورأى سعد صنيع القعقاع فقال : اللهم اغفرها له ، وانصره قد أذنت له إذا لم يستأذن[2] .

وأرسل سعد إلى بقية جند المسلمين بعدما أقر القعقاع على تصرفه : إن الأمر الذي صنع القعقاع ، فإذا كبرت ثلاثاً فازحفوا[3] . وكبر سعد التكبيرة الأولى فتهيأ المسلمون ، وكبر سعد التكبيرة الثانية ، فانطلق عاصم – شقيق القعقاع – وأصحابه نحو الفرس ، وانضموا للقعقاع كما انضمت قبيلة بني أسد إلى القتال أيضاً من دون انتظار تكبيرة سعد الثالثة ، ورآهم سعد فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، وا أسداه سائر الليلة[4] !

وحملت قبيلة النخع على الفرس أيضاً ، ولم تنتظر التكبيرة الثالثة ، ولحقت بها قبيلة بجيلة بعد ذلك ، وتتابع زحف جند المسلمين نحو الفرس ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ٣ ص«٥٥٩». الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) « « « : « – جـ٣ ص«٥٥٩» « « « «
(٣) « « « : « – جـ٣ ص«٥٥٩» « « « «
(٤) « « « : « – جـ٣ ص«٥٦١» « « « «

غير منتظرين تكبيرة سعد الثالثة ، ولم يبق إلا قادة جند المسلمين ينتظرون تكبيرة سعد ، وحين كبر سعد تكبيرته الثالثة اندفع جيش المسلمين بكامله لقتال الفرس .

وغمرت الظلمة أرض المعركة ، ولم يعد سعد يتبين مواقع جنده ، وكان لا يصله إلا صوت صليل السيوف ، وصوت الرماح وهي تشق الهواء والسهام تطيش من فوق الرؤوس .

وبات سعد قلقاً ، يرهف السمع لصوت يصله ، ليطمئنه على سير المعركة ، وكان أن وصله صوت القعقاع أخيراً في النصف الثاني من الليل وهو ينشد :

نحن قتلنا مَعشراً وزائداً   أربعةً وخمسةً وواحدا

نُحسَبُ فوق اللِّبد الأساودا   حتى إذا ماتوا دعوتُ جاهدا

الله ربي ، واحترزتُ عامداً[١]

فاطمأن سعد وعرف بأن المعركة تدور على الفرس . أما المقصود بليلة الهرير ، فهي الليلة التي كانت تصدر فيها الأصوات دون كلام[٢] .

يوم القادسية :

استمر القتال بين المسلمين والفرس طوال ليلة الهرير ، وأسفر الصبح والجيشان على قتالهما ، وقد نال التعب من كلا الجيشين وأزفت الساعات الحاسمة ، وعرف القعقاع ذلك فخاطب أصحابه يشد من أزرهم ، ويبعث فيهم الهمة والنشاط وقال لهم : إن الدبرة بعد ساعة لما بدأ القوم ،

---

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ ٣ ص« ٥٦٢ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) القادسية: أحمد عادل كمال ص «١٧٦» الناشر دار النفائس بيروت .

فاصبروا ساعة ، واحملوا ، فإن النصر مع الصبر [1] .

وعزم القعقاع على الوصول إلى « رستم » في معسكره ، فجمع اليه بعض فرسانه ، وشنوا هجوماً قوياً باتجاه معسكر « رستم » ، والسرير الذي يجلس عليه ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع القعقاع وفرسانه شق طريقهم من بين صفوف الفرس ، واقتربوا من معسكر رستم ورأت بقية القبائل ما فعله القعقاع وفرسانه ، فتنادوا فيما بينهم ، وحملوا دفعة واحدة على الفرس . وما أن توسطت الشمس كبد السماء حتى تراجع جناح الفرس الأيمن الذي يقوده القائد «هرمزان» ، تحت ضغط هجوم جند المسلمين واندفاعهم ، كما تراجع جناح الفرس الأيسر الذي يقوده القائد « البيرزان » ، والقعقاع وفرسانه يزدادون اقتراباً من معسكر «رستم» القائم في قلب الجيش الفارسي.

وهبت ريح قوية أطارت الأقمشة التي جلل بها أتباع رستم سريره ، فأزعجه ذلك ، فقام عن سريره ، والتجأ إلى ظل بغال محملة بالأموال كان قد بعثها اليه الملك « يزدجرد » ، ووصل القعقاع وفرسانه إلى « رستم » ، وانشغلوا بقتال حراسه ، ولمح أحد فرسان المسلمين وهو « هلال بن علقمة التميمي » ، البغال المحملة بالأموال والتي كان رستم يستظل بظلها ، فاقترب منها وقطع الحبال التي شدت الحمولة على ظهرها ، فوقعت تلك الحمولة على ظهر رستم ، فأصابته فغادر رستم مكانه منطلقاً نحو العتيق ، فأبصره هلال فلحق به ، وأمسك به وسحبه من قدمه خارج النهر وهوى بسيفه على رأسه ففلق هامته ، وحمله ورمى به بين أرجل البغال وصعد سريره وأخذ ينادي : قتلت رستم ورب الكعبة، إلي [2] .

وبدأ بعدها انسحاب الفرس وتدافعوا ليعبروا العتيق ، وجند المسلمين من خلفهم ينالون منهم ويقتلون من يصلون اليه ونجح « جالنوس»

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٣ ص «٥٦٣» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « « ج ٣ ص «٥٦٤» « « « «

و « هرمزان » من قادة الفرس بالفرار من أرض المعركة . وقضى المسلمون على من بقي من الفرس في أرض المعركة .

وأرسل سعد إلى القعقاع وقد مالت الشمس عن كبد السماء ليطارد من فر من جند الفرس نحو الشرق من أرض المعركة وصحب القعقاع في مطاردته تلك شقيقه « عاصم بن عمرو » .

كما أمر سعد « شرحبيل بن السمط » وجنده بمطاردة من فر من جند الفرس باتجاه شمال أرض المعركة ، وطلب منهما (من القعقاع وشرحبيل) ألا يوغلا في مطاردتهما .

وعادا من مطاردتهما ، فأوكل سعد للقعقاع من جديد الإتجاه هـذه المرة نحو الشمال ، للقضاء على كل مقـاومة للفرس ، وأوكل لشرحبيل الاتجاه نحو الشرق[1] .

وهكذا انتهت معركة القادسية ، بانتصار حاسم للمسلمين على الفرس في أرض العراق . وكان ذلك في العام الرابع عشر للهجرة .

وكما رأينا ، فقـد ساهم القعقاع بالنصيب الأكبر في تلك المعركة ، ونجح فيما ابتكره من حيل في شـد عزيمة المسلمين وتشجيعهم ، ودب الذعر والخوف في قلوب جند الفرس ، كما قضى مـع شقيقه عاصم على أكبر فيلة الفرس ، وأعظمها (الفيل الأبيض) ، وفي ذلك مـا مكن المسلمين من الثبات في أرض المعركة والقضاء على مشاة الفرس .

حقاً ، كانت معركة القادسية ذروة أمجاد القعقاع ومفاخره وبطولته . حتى أن « سعد بن أبي وقاص » حين انتهت المعركة وبدا له ما ساهم فيه كل فارس من فرسان المسلمين في المعركة ، وما تحملته كل قبيلة مـن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٣ ص « ٥٦٥ » . الناشر دار المعارف بمصر .

قبائل العرب ، ذكر القعقاع ولم ينسه وأنشد يقول :

وما أرجو بجيلة غيرَ أني ... أؤمل أجرها يومَ الحسابِ
وقد لقيتْ خيولهمُ خيولاً ... وقد وقع الفوارس في الضِّرابِ
فلولا جمعُ قعقاع بن عمرو ... وحمّال للجُّوا في الكذابِ
وهم منعوا جموعكم بطعن ... وضربٍ مثل تشقيق الاهابِ
ولو لا ذاك ألفيتم رعاعاً ... تُشل جموعكم مثل الذباب[1]

فتح مدينة بهرسير[2]

بعد أن تم للمسلمين انتصارهم على الفرس في موقعة القادسية ، انطلق سعد بجيش المسلمين نحو مدينة (بهرسير) . كانت تلك المدينة الفارسية تقع على الشاطىء الغربي لنهر دجلة ، يفصل بينها وبين (المدائن) ، عاصمة الفرس نهر دجلة .

كان القعقاع بن عمرو في جيش سعد وقد انطلق مع إخوانه المجاهدين ليتابع انتصاراته وفتوحاته في تلك الأرض التي شهدت أولى آيات شجاعته وبطولته ومهارته في القتال ، حين قدم اليها لينضم إلى جيش خالد بن الوليد في أولى معارك المسلمين في أرض العراق .

حاصر جيش المسلمين مدينة (بهرسير) ، وانتشر المجاهدون حولها ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، ج ٣ ص « ٥٨٠ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) بهرسير : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن ، وهي احدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن ، وهي معربة من ده أردشير ، ويقال به أردشير ومعناها : خير مدينة أردشير . وهي تقع غربي نهر دجلة ، تجاه ايوان كسرى ، حيث يقع الايوان في شرقي دجلة ، معجم البلدان : لياقوت الحموي ج ١ ص « ٥١٥ » ، الناشر : دار صادر بيروت .

وقد نصبوا المجانيق[1] يقذفون الفرس بالحجارة ، ويرمونهم بالرمـــاح ويرشقونهم بالسهام ، وبقوا على حصارهم للمدينة زهاء الشهرين[2] .

كان الفرس يعتصمون بأسوار المدينة ، يبادلون المسلمين الرمي بالرماح والرشق بالسهام . وخرجوا اليهم في احدى المرات يريدون قتالهم وردهم عن المدينة ، إلا أن المسلمين ثبتوا للفرس ، وتمكنوا من صد هجومهم ، وحملوا عليهم ليهزموهـــم في آخر المطاف ، ويدفعوا من بقي منهم على قيد الحياة للهرب والإحتماء بأسوار المدينة من جديد[3] .

وانتقل الرسل بـــين المسلمين والفرس ، وعرض رسول المسلمين على الفرس الإسلام أو الجزية ، وإن أَبَوْ فليس أمامهم إلا القتال . وعرف الفرس بأنهم إن بقوا على موقفهم هـــذا فلن يكون نصيبهم بأقل مما أصاب زملاءهم يوم القادسية ، فأزمعوا على الرحيل واخلاء المدينة ، والفرار عبر نهر دجلة إلى الضفة الشرقية ، إلى (المدائن)[4] .

وفر الفرس من المدينة ليدخلها المسلمون ويجدوها خالية من أهلها ، حتى السفن التي كانت تستخدم لعبور نهر دجلة ، استخدمها الفرس كلها وعبروا عليها ، ولم يبقوا في (بهرسير) أي منها .

كان وقت دخول المسلمين مدينة بهرسير حوالي منتصف الليل ، وقد أشرفوا منها على نهر دجلة وعلى (المدائن) القائمة في الضفة الشرقية ، فلاح لهـــم قصر الأكاسرة في (المدائن) والذي كان يدعى الأبيض ، فنادى « ضرار بن الخطاب » وقد رأى ذلك القصر على الضفة الشرقية

---

(١) يعتقد بأن المسلمين قد عرفوا أداة الحرب الجديدة هذه في معاركهم في أرض العراق .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ـ جـ٤ ص «٥».الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص «٦» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٤) « « « : « . جـ٤ ص «٧» . « « « «

لنهر دجلة : الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله[1] .

وردد المسلمون تكبيرة ضرار ، وهم يتأملون قصر كسرى ، وقد اطمأنت نفوسهم ، وفرحت قلوبهم ، واستبشروا بفتح قريب لعاصمة الفرس (المدائن) .

فتح المدائن :

عزم « سعد » بعد فتح مدينة (بهرسير) على متابعة فتوحاته والانطلاق إلى فتح (المدائن) . إلا أن الفرس استخدموا كل السفن التي كانت موجودة في (بهرسير) اثناء عبورهم إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة ، ولم يبق أمام المسلمين إذا أرادوا العبور إلا أن يعبروا نهر دجلة على خيولهم ..

كان سعد متردداً في السماح لجنده في عبور النهر على خيولهم، وبقي لعدة أيام على تردده هذا - وكان ذلك في شهر صفر من العام السادس عشر للهجرة[2] - إلا أن سعداً رأى رؤية في احدى الليالي : فقد رأى المسلمين قد عبروا النهر على خيولهم ، فتفاءل بهذه الرؤية ، وتوكل على الله وقرر أن يسمح لجنده بالعبور .

جمع سعد اليه جنده ليبلغهم قراره بالسماح لهم بعبور النهر على خيولهم وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون اليه معه ، وهم يخلصون اليكم إذا شاؤوا فيناوشوكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم وقد رأيت من

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٨ » ، الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) « « « « ج ٤ ص « ٨ » « « « «

الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . الا إني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم[1] .

ووافقه جنده على رأيه وامتثلوا لأوامره وقالوا له : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل[2] .

ونادى سعد في جنده يسألهم من يبدأ العبور أولاً وقال : من يبدأ ويحمي لنا الفراض[3] حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج[4]؟

فأجابه لندائه « عاصم بن عمرو » « شقيق القعقاع » ، فأمره سعد على ستمائة من أشد فرسان المسلمين وأشجعهم ، وانطلق عاصم بفرسان المسلمين حتى وصل إلى شاطىء دجلة حيث يريدون العبور ، والتفت إلى أصحابه وقال لهم : من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا ؟ [5] . فأجابه ستون من الفرسان كان منهم « أصم بني ولاد » ، وشرحبيل وغيرهم ، فقسمهم عاصم إلى قسمين ، ركب نصفهم الأول على خيول اناث ، وركب نصفهم الثاني على خيول ذكر ، ونزل عاصم على رأسهم نهر دجلة ، وتبعهم بعد ذلك بقية اخوانهم الستمائة .

إلا أن الفرس على الضفة الشرقية للنهر كانوا يتابعون تحركات المسلمين على الضفة الغربية ، وما أن رأوا عاصم واخوانه قد بدأوا العبور حتى عبر بعض من فرسان الفرس النهر في الاتجاه المعاكس نحو فرسان المسلمين. وما أن رآهم عاصم حتى صاح بأصحابه : الرماح الرماح ! أشرعوها

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٩ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « « جـ ٤ ص « ٩ » « « « «
(٣) « « « « جـ ٤ ص « ٦ » « « « «
(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٩» الناشر دار المعارف بمصر .
(٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٩» الناشر دار المعارف بمصر .

وتوخوا العيـون[1] . واشتبك المسلمـون بالفرس في نهر دجلة ، وقصد المسلمون أصابه عيون الفرس كما وجههم عاصم ، مما أفزع الفرس وجعلهم يتراجعون إلى الضفة الشرقية للنهر ، ولحق بهم المسلمون ، ينخسون خيولهم لتسرع ، واستطاعوا اللحاق بهم وتمكنوا من الكثيرين منهم ، فقتلوهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار . ولحق بقية أصحاب عاصم به بعد ذلك ، وانضموا اليـه في الفراض ، واشتبكوا مع الفرس القـائمين بالدفاع عنها .

أما سعد فقد كان يتابع عبور عاصم واخوانه نهر دجلة ، فقال وهو يرى اشتباك الفرس مع المسلمين : والله أن لو كانت الخرساء لكانت قد أجزأت وأغنت[2] .

من هي (كتيبة الخرساء) التي تمنى سعد لو أنها كانت في الفراض تحارب الفرس وتقاتلهم ؟!!

كتيبة الخرساء ، هي الكتيبة التي استطاعت القضاء على أعظم فيلين للفرس في معركة القادسية ، الفيل الأبيض ، والفيل الأجرب ، وقـد كانت هذه الكتيبة مضرب الأمثال في الشجاعـة والبطولة والمقدرة والمهارة في القتال ... كتيبة الخرساء ، هي الكتيبة التي كان فيها القعقاع ، و« حمال بن مالك » ، و« الربيل بن عمرو » !!

وتمنى سعد لو أنها كانت موجودة في هذه اللحظات ، إلا أن عاصم – شقيق القعقاع – ، لم يكن أقل من شقيقه شجاعة ومقدرة وبطولة ، حتى أن كتيبته كان يطلق عليها (كتيبة الأهوال) ، ولا ننسى أن

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٩» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «١١» . الناشر دار المعارف بمصر .

عاصم كان مع القعقاع حين قضى كلاهما على الفيل الأبيض في ثالث يوم من أيام معركة القادسية .

واستطاع عاصم مع فرسانه القضاء على مقاومة الفرس في الفراض ، وعندها أذن سعد لبقية الجيش بالعبور إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة . وانطلق سعد أمامهم وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيـــل ! والله لينصرنّ الله وليّه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات[1] .

ونجح المسلمون كلهم بعبور النهر إلى الضفة الشرقيـة ، إلا أن أحد فرسان المسلمين ويدعى « غرقدة » ، سقط من على ظهر فرس له شقراء فرآه القعقاع الذي يبدو أنه كان قريباً منه ، فهب لنجدته بكل المروءة والشهامة والنجدة التي عرفت عنه ، وأخذ بيده وسحبه حتى نجح كلاهما في عبور النهر ، فقال « البارقي » أحد فرسان المسلمين وقد رأى نجدة القعقاع لأحد زملائه : أعجز الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع[2] .

وقد أطلق المؤرخون على يوم عبور المسلمين لنهر دجلة إلى الضفة الشرقية منه قاصدين المدائن ، يوم الماء ، ويوم الجراثيم[3] .

وعلم ملك الفرس « يزدجرد » ، بهزيمـــة جنوده في (بهرسير) ، وبتقدم جيش المسلمين باتجاه (المدائن) ، فأمر بترحيل نسائه وأولاده إلى مدينة (حلوان)[4] ، وعاد ليلحق بنسائه وأولاده إلى حلوان بعد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ ٤ ص «١٢» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري –جـ٤ ص « ١٢ »الناشر دار المعارف بمصر.
(٣) « « « : « ـجـ ٤ ص (١٣) « « « «
(٤) حلوان : وهي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٢ ص «٢٩١» . الناشر دار صادر بيروت .

أن نزل جيش المسلمين بالفراض ، وخلف وراءه « مهران الرازي والنخيرجان »[1] .

وانطلق جيش المسلمين بعد تجمعه في الفراض نحو المدائن ، واصطدم بالفرس الذين بقوا للدفاع عن المدينة ، وتمكن المسلمون من التغلب على جند الفرس بعد قتال شديد ، وقد خارت عزائم أولئك الجند حين علموا بهرب ملكهم « يزدجرد » ، واخلائه للمدينة .

وكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال (كتيبة عاصم بن عمرو) ومن ثم لحقت بها كتيبة الخرساء (كتيبة القعقاع بن عمرو) .

وانتهى المسلمون أخيراً إلى القصر الأبيض ، قصر كسرى ، وقد بقي فيه بعض الجند يدافعون عنه ، فضرب المسلمون الحصار حول ذلك القصر ، ودعا سعد الحامية التي تدافع عن القصر إلى دفع الجزية لمنع إراقة المزيد من الدماء فاستجابوا له ، ليدخل سعد وجنوده بعد ذلك القصر ، وقد كلف قبلها أحد فرسان المسلمين « زهرة بن الحوية التميمي » بملاحقة الفرس الذين فروا قاصدين (النهروان)[2] .

وما أن دخل سعد إيوان كسرى حتى قرأ : (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك أورثناها قوماً آخرين)[3] . وصلى صلاة الفتح ، شكراً وحمداً لله الذي أسبغ على المجاهدين الثبات والصبر والعون . وكانت أول جمعة صلى فيها المسلمون جماعة في المدائن ، في شهر صفر من العام السادس عشر للهجرة[4] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ١٣ » ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري، جـ٤ ص(١٤) ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) سورة الدخان : ٢٥ - ٢٨ .
(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص« ١٦» الناشر دار المعارف بمصر .

لقد كان فتح (المدائن) نصرًا عظيمًا كتبه الله — عز وجل — للمسلمين وآن لهم أن يقطفوا ثمار نصرهم هذا ، يقطفوا الثمار في الحياة الدنيا قبل الآخرة .

ووكل سعد « عمرو بن عمرو بن مقرن » ، بجمع الغنائم ، وثروات قصر كسرى قبل تقسيمها على المجاهدين . وأوعز سعد إلى جند المسلمين باللحاق بالفرس الذين فروا بثروات قصر كسرى ، واعادتها متى ظفروا بها إلى عمرو . فانطلق جنـد المسلمين وراء الفرس الفـارين واستطاعوا اللحاق بمعظمهم وإعادة ما كان معهم .

وكان زهرة الذي أوكل اليـه سعد مهمة اللحاق بالفرس الفارين نحو النهروان ، قد ظفر بهم على جسر (النهروان) ، وكانوا يزدحمون عليـه في محاولة لاجتيازه والفرار من جند المسلمين . وسقط للفرس وهم على الجسر بغل كانوا يحرصون على الفرار به ، فلحق به الكثير منهم ورموا بأنفسهم وراءه ، فتسرب الشك لنفس زهرة لما رأى ذلك المشهد وقال : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا ! ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه[1] .

وقد كان شك زهرة في محله ، فالبغل كان محملاً بحلية كسرى ، وثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيهـا الجوهر ، فأمر زهرة جنوده باخراج البغل ، فأخرجوه وأخذوا ما عليه وأرسلوه إلى عمرو .

وخرج القعقاع هو أيضاً يلحق بجنود الفرس الذين فروا بثروات قصر كسرى ، فلمح فارسي عـلى فرسه يلوذ بالفرار ، فلحق به القعقاع ، ووصل اليه ، واشتبك معه ، واستطاع التغلب عليـه فقتله ، ليجد على

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص«١٧» . الناشر دار المعارف بمصر .

فرسه بعد ذلك عيبتان[1] ، وغلافان ..

أما العيبتان فكان فيهما أدراع ، وهي : درع كسرى ، ودرع هرقل ودرع خاقان ، ودرع داهر – وهم من قواد الروم ، غنم الفرس هذه الدروع في احدى معاركهم معهم – ودرع بهرام شوبين ، ودرع سياوخش ، ودرع النعمان – الذي هرب من كسرى وخلف درعه عنده – كما وجد فيهما دروع ساقي وساعدي كسرى .

أما الغلافان ، فكانا يحتويان على سيوف ، وهي : سيوف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز ، وسيوف هرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان .

وعاد القعقاع بغنيمته تلك إلى سعد ، فكافأه سعد بأن جعله يختار أحد السيوف ، وقال له : اختر أحد هذه السيوف . فاختار القعقاع سيف هرقل ، ومنحه سعد درع بهرام[2] .

أما بقية السيوف والدروع فقد وزعها سعد على جنود كتيبة الخرساء وكتيبة القعقاع ، ما عدا سيفي كسرى والنعمان ، فقد بعثهما سعد مع ثياب كسرى وحليته وثيابه إلى عمر في المدينة ليراهم ، ويراهم المسلمون من بعده ، ولينتشر بين العرب خبر استيلاء جيش المسلمين على ثروات كسرى بعد هزيمتهم للفرس .

وكانت للمسلمين مواقف كريمة مشرفة في تلك الأوقات التي يتاح فيها للجند المنتصرين في معاركهم وحروبهم فرصة السلب والنهب ، والحصول على الغنائم والثروات .

---

(١) العيبة : ما تجعل فيه الثياب كالصندوق .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص(١٨) . الناشر دار المعارف بمصر .

فجند المسلمين كانوا أعف من أن يأخذوا ما ليس من حقهم ، وكانوا يردون كل ما غنموه وعثروا عليه إلى من أوكل اليه سعد جمع الثروات والغنائم . وينتظرون حصتهم بعد ذلك ، حسب ما شرعه لهم دينهم الحنيف ، وهم راضون بذلك ، فرحين به ، غير مخالفين قواعد دينهم ولا سنة رسولهم .

أتى رجل إلى عمرو بحق ، (والله يعلم بما كان هذا الحق مملوءاً) ودفعه اليه ، فسأله عمرو ومن معه وقد ادهشهم ما حوى هذا الحق : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعد له مـــا عندنا ولا يقاربه . وتابعوا كلامهم لا بصيغة السؤال والاستنكار بل بصيغة الطلب : هـل أخذت منه شيئاً ؟ فأجابهم الذي قدم بالحق : أما والله لولا الله ما أتيتكم به. فسألوه : من أنت ؟ فكان جوابه الذي يدل على عزة نفسه ، ومـا يرجوه من ربه من ثواب ، وما يطمع به من أجر ، غـير راغب في شهرة أو بعد صيت : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه . وما زالوا يتبعوه حتى عرفوا بأنـه « عامر بن عبد قيس »[1] .

وبلغ سعد خبر هذا الجندي فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت وأيم الله – على فضل أهل بدر – لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنـات فيما أحرزوا ، وما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم[2] .

وأما في المدينة عاصمة الدولة الإسلامية ، فقد كان عمر بن الخطاب

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص(١٩) . الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص(١٩) . الناشر دار المعارف بمصر.

ثاني خليفة للمسلمين ، يتابع انتصارات جيش سعد وفتوحاته ، ووصله سيف كسرى وحليته وثيابه فقال عندها : إن أقواماً أدوا هذا لذووا أمانة [١] .

كان عمر يثني على جيش سعد وعلى أمانة جنده ، فسمع كلامه « علي ابن أبي طالب » (كرم الله وجهه) ، وكان في مجلسه يومها فقال له : عففت فعفت الرعية ...[٢] .

ما أبلغها من عبارة ، وما أصدقه من قول ، وما أعظمها من حقيقة . أن الرعية تمشي على خطى قادتها ، وتتمثل أفعالهم وتحذو حذوهم ، هذه حقيقة عكسها صادق كل الصدق ...

معركة (جلولاء الوقيعة) [١] :

بعد أن استقر المقام بالمسلمين في (المدائن) واقتسموا الغنائم فيما بينهم وبعثوا إلى الخليفة في المدينة بأخماس تلك الغنائم كما تقضي تعاليم الدين الحنيف ، بلغهم بأن أحد قواد الفرس ويدعى « مهران » قد عسكر وجنوده في (جلولاء) ، وانهم حفروا خندقاً حول تلك المدينة ليمنعوا الوصول اليهم .

فكتب سعد إلى أمير المؤمنين في المدينة « عمر بن الخطاب » يبلغه ما وصل لعلم المسلمين من تجمع الفرس بقيادة « مهران » في (جلولاء).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ص(٢٠) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص(٢٠) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) جلولاء : طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان ، بينها وبين خانقين (وهي بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٢ ص(٣٤٠) سبع فراسخ (والفرسخ يعادل ثمانية كيلومترات) . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٢ ص(١٥٦) . الناشر دار صادر بيروت .

فرد عمر على سعد : أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته سِعْر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني[1] .

وجهز سعد حسب أوامر الخليفة جيشاً قوامه اثني عشر ألف مجاهد ، ووضع على رأسه « هاشم بن عتبة » ، وعلى مقدمته « القعقاع بن عمرو » ، وانطلق هاشم بجيشه نحو جلولاء ، وكان ذلك في شهر صفر من العام السادس عشر للهجرة[2] .

ووصل هاشم وجيشه وفي مقدمته القعقاع إلى (جلولاء) ليجدوا الفرس قد تحصنوا فيها وحفروا خندقاً حولها ليمنعوا المسلمين من الوصول اليهم ، وسوروا الخندق بأخشاب مدببة الرؤوس وجعلوا لهم منفذاً عبر الخندق لئلا يحصروا أنفسهم خلف سور الخندق .

وكان ملك الفرس « يزدجرد » الذي فر إلى (حلوان) بعد فتح المسلمين (للمدائن) ، يبعث إلى الفرس في جلولاء بالمدد من الجند والسلاح ، ليساعدهم في صد المسلمين عن المدينة .

ضرب المسلمون الحصار حول الخندق ، ولم يكن لهم إلا رمي الفرس بالرماح ورشقهم بالسهام ، فهم لا يستطيعون أن ينفذوا اليهم وقد أحاطوا أنفسهم بذلك السور من الخشب .

وأرسل هاشم إلى سعد ليمده بالمزيد من الجند وهو يرى بأن المعركة ستكون شديدة بين جنده وجند الفرس ، فكان أن سرح له سعد مائتي

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . حـ٤ ص«٢٤» . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . حـ٤ ص«٢٥» . الناشر دار المعارف بمصر .

فارس في أثر مائتي فارس وكان ممن قدم على هاشم وجنده « طليحة بن خويلد الأسدي » و« قيس بن المكشوح » و« عمرو بن معد يكرب » و« حجر بن عدي »[1].

ولم يطل انتظار المسلمين كثيراً فسرعان ما خرج لهم الفرس من خلف السور . وما أن رأى هاشم الفرس يخرجون لقتال جنده ، حتى نادى فيهم : أبلوا الله بلاءً حسناً يتم لكم الأجر والمغنم ، واعملوا لله[2].

واشتبك المسلمون مع الفرس وكان القتال شديداً ، وكلا الطرفين يجاهد ويبذل طمعاً في النصر ، وظلوا على قتالهم هذا حتى توسطت الشمس كبد السماء ، تراجعت بعدها كتيبة الفرس التي تقاتل المسلمين إلى خلف سور الخندق لتخرج كتيبة أخرى لقتالهم ، فهال ذلك على المسلمين وهم يرون كتيبة جديدة تخرج لقتالهم ، ولمح القعقاع على وجوه أصحابه الضيق والإنزعاج فقال لهم : أهالتكم هذه ؟ فردوا عليه : نعم ، نحن مُكلون وهم مُريحون ، والكال يخاف العجز إلا أن يعقب ، فقال لهم القعقاع باثاً فيهم الشجاعة والهمة : إنا حاملون عليهم ومجاهدوهم وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم[3] .

وحمل المسلمون من جديد على الفرس ، واشتبكوا معهم وكان القتال شديداً عنيفاً ، والفرس صامدون لم يتراجعوا وأرخى الليل سدوله على أرض المعركة ، والمسلمون والفرس على قتالهم الشديد ، وعاد المسلمون ليحملوا حملة جديدة على الفرس ، وقد وصل المزيد من المدد من عند

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٢٧» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى . جـ٤ ص(٢٥) . الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) « « « : « جـ٤ ص «٢٧» « « « «

سعد ، وطلب القعقاع - وكان قد نجح في أن يجد له منفذاً نحو الطريق الذي أقامه الفرس على الخندق - من أحد أصحابه أن ينادي : يا معشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا اليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله[1] .

وشد ذلك النداء من عزم المسلمين وهم يحسبون أن أميرهم هاشم قد نجح في اجتياز الخندق - وكان الذي نجح في ذلك فعلاً هو القعقاع وليس هاشم ، وعليهم أن يهبوا لنجدته ومساندته ، وأفلح القعقاع في بث النشاط والهمة في جند المسلمين بندائه ذاك ، وهو يعرف بأن جند هاشم لن يتركوه وقد عرفوا بأنه قد اجتاز الخندق ولا بد أنهم سيسرعون لنجدته ومعونته . وكان ذلك فعلاً ، فحمل المسلمون حملاتهم الأخيرة على جند الفرس الذين بدأوا يتراجعون من شدة ضغط المسلمين عليهم ، ووصلوا أخيراً ليجدوا القعقاع وأصحابه قد نجحوا في السيطرة على الطريق الذي أعده الفرس لاجتياز الخندق ، فتعاونوا جميعاً ودفعوا الفرس للخلف وأجبروهم على التراجع ، ودبت الفوضى أخيراً بين جند الفرس وقد تمكن المسلمون منهم ، وتزعزعت صفوفهم ، فقتل المسلمون الكثيرين منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار ، وسميت معركة جلولاء (بجلولاء الوقيعة) لأن المسلمين أوقعوا بالفرس في تلك المعركة وتمكنوا من هزيمتهم[2] .

وبعد ذلك الانتصار ، كان لا بد من مطاردة فلول جيش الفرس المهزوم ، ومن لهذه المهمة غير القعقاع الذي أثبت جدارته وكفاءته في القتال ؟!!

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص « ٢٦ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « : « ج ٤ ص « ٢٦ » « « « «

وبالفعل أوعز هاشم إلى القعقاع بملاحقة فلول جيش الفرس ، فلحق بهم القعقاع ومعه بعض جنده ، حتى وصل في مطارته إلى (خانقين)[1].

وبلغ ملك الفرس « يزدجرد » خبر هزيمة جنده في جلولاء ، فعمد إلى الفرار من (حلوان) ، وكأنه لم يعد يعرف إلا الفرار والانتقال من مكان إلى آخر ، هرباً من المسلمين وقد يئس من وقفهم وصد زحفهم وتوغلهم في أرض فارس .

وكان عمر قد كتب إلى سعد : ان هزم الله الجندين : جند مهران وجند الانطاق (اسم أحد قادة الفرس) ، فقدم القعقاع ، حتى يكون بين السواد والجبل ، على حد سوادكم[2] .

وأدرك القعقاع في مطاردته لفلول جيش الفرس المهزوم « مهران » في الخانقين ، فقاتله وقتله[3] . ليدخل بعدها (حلوان) ، بعد أن فر ملك الفرس « يزدجرد » منها .

وقد أنشد القعقاع بعد فتح حلوان :

وهل تذكرون ، إذ نزلنا وأنتم
منازل كسرى ، والأمور حوائل

فصرنا لكم ردءاً بحلوان بعد مـا
نزلوا جميعـاً ، والجميع نوازل

---

(١) خانقين : بلدة من نواحي السواد في طريق همذان . معجم البلدان لياقوت الحموي ج٢ ص (٣٤٠) الناشر دار صادر بيروت .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٢٨ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) « « « : » ج ٤ ص « ٢٨ » « « « «

فنحن الأولى فزنا بحلوان بعد ما
ارنتْ على كسرى الإماد الحلائل[1]

وعاد سعد يكتب من جديد إلى عمر بانتصارات المسلمين ، وإلى أي مدى بلغ زحفهم في أرض فارس ، وطلب منه الاذن في متابعة مطاردة الفرس ، إلا أن كتاب عمر جاء برفض الطلب وقال له : لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم ، وحسبنا من الريف السواد ، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال .

لم يكن الخليفة يبغي المزيد من الغنائم والأنفال ، وكان حسبه ما وصل اليه المسلمون حتى الآن من الفتح ، وهو لا يريد أن يخسر المزيد من المسلمين من أجل الغنائم .

وبقي القعقاع في (حلوان) مع جنده ، حتى تحول جيش سعد من (المدائن) إلى (الكوفة) ، وخلف في (حلوان) « قباذ »[2] .

أما وقد انتهت المعركة ، وغنم جند سعد – وهم جند هاشم الذين اشتركوا في المعركة – الغنائم فلا بد من ارسال خمس هذه الغنائم إلى المدينة ، كما هي العادة المتبعة . وأوكل سعد إلى « القضاعي » و« أبي مفرز » و« زياد بن أبي سفيان » ، بنقل هذا الخمس وكلف زياد بأن يقدم إلى الخليفة حساباً عنها .

ووصل وفد سعد إلى المدينة ، ودخل مجلس الخليفة ، وقام « زياد ابن أبي سفيان » يحدث الخليفة وأصحابه عن انتصارات المسلمين وما الحقوه بالفرس من هزائم ، ويعدد له ما غنموه . فسأله عمر بعد أن

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٢ ص « ٢٩١ » الناشر دار صادر بيروت.
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، جـ٤ ص «٢٨» ، الناشر دار المعارف بمصر.

سمع حديثه : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فرد عليه زياد : والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟

وقام زياد في الناس يحدثهم بما حدث به الخليفة من قبـل ، فقال عمر لما سمع حديثه من جديد : هذا الخطيب المصقع[١] . فرد عليه زياد : ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا[٢] .

وأنشد القعقاع بعد انتصار المسلمين على الفرس في جلولاء :

ونحن قتلنا في جلولاء أثابراً ومهران إذ عزت عليه المذاهب

ويوم جلولاء الوقيعة أفنت بنو فارس ، لما حوتها الكتائب[٣]

ترك القعقاع أرض الشام إلى العراق ، بعد انتصار المسلمين على الروم في معركتي اليرموك وفحل ، وبعد فتحهم لمدينة دمشق . ولكن يبدو بأن دور القعقاع في أرض الشام لم ينته كلية ؟!!

فالمسلمون في أرض الشام ، كانت تتابع انتصاراتهم وفتوحـاتهم ، فقد تمكنوا من فتح مدينـة (حمص) ، والانتصـار على الروم في (قنسرين)[٤] ، وفتح مدينتي (بيسان) ، و (قيسارية)[٥] ، وتم لهم أخيراً فتح (بيت المقدس) .

على أن الروم لم يرضوا أن تضيع منهم تلك الأراضي التي امتدت

---

(١) المصقع : البليـغ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج٤ ص« ٣٠ » . الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي . ج٢ ص «١٥٦» . الناشر دار صادر بيروت .

(٤) قنسرين : بلدة كانت في الطريق بين حمص وحلب .

(٥) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. معجم البلدان . لياقوت الحموي ج ٤ ص (٤٢١) . الناشر دار صادر بيروت .

عليها امبراطوريتهم في يوم من الأيام ، لذلك فكروا بالعودة إلى أرض الشام من جديد ، وتكاتبوا مع العرب النصارى الموالين لهم والمقيمين في الجزيرة – من أرض سورية – ليتجمعوا لحرب المسلمين ، وجمعوا جموعهم واتجهوا صوب مدينة (حمص) ، آخر مدينة غادرهـا امبراطورهم « هرقل » .

وعلم أبو عبيدة بتجمع الروم وعرب النصارى واتجاههم إلى مدينة حمص ، فخرج بجيشه وعسكر خارج المدينة ، وبعث إلى خالد بن الوليد الذي كان لا يزال في (قنسرين) لينضم اليه مع جنده .

واستشار أبو عبيدة أصحابه وخالداً ، هل يقاتل الروم أم ينتظر المدد والمعونة ؟! فأشار عليه خالد – بما عرف عنه من اقدام وشجاعة وحب للقتال – بقتال الروم ، أما بقية أصحابه فأشاروا عليه بانتظار المدد والمعونة . فمال أبو عبيدة لرأي أصحابه ، وكتب إلى عمر في المدينة ، يعلمه أمر تجمع الروم وعرب النصارى لمحاربة المسلمين في أرض الشام ، وطلب اليه أن يمده بالجنود .

وما أن وصل الكتاب إلى عمر حتى كتب إلى سعد في أرض فارس : أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص ، فإن أبو عبيدة قد أحيط به ، وتقدم اليهم[1] في الجد والحث[2] .

وهكذا كانت هناك مهمة جديدة تنتظر القعقاع في أرض الشام ... فقد عرف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في القعقاع ما عرفه الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، من الشجاعة والمقدرة والبطولة والمهارة في القتال ، فندبه لهذه المهمة في أرض الشام .

---

(١) تقدم اليهم : أي امرهم .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج٤ ص « ٥١ » الناشر دار المعارف بمصر .

وكتب عمر إلى سعد أيضاً ليوجه أمراء جنده لقتال العرب النصارى الذين يزمعون الإنضمام إلى الروم لقتال المسلمين وقال له : سرح سهيل ابن عدي إلى الجزيرة في الجند وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم عـــلى أهل حمص ، وإن أهل قرقيساء لهم سلف . وسرح عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، فإن أهل قرقيساء[1] لهم سلف ، ثم لينفضا حران والرهـــاء . وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعـة وتنوخ ، وسرح عياضاً ، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم[2] .

وانطلق القعقاع بناء على أوامر الخليفة في أربعة آلاف من جنده إلى حمص كما انطلق أمراء الجند الذين أشـار اليهم الخليفة في كتابه إلى سعد مع جنودهم لتنفيذ المهمة التي أوكلت اليهم .

كما أن الخليفة خرج بنفسه من المدينة لاغاثة أبي عبيدة ومساعدته ، ونزل في الجابية [3] .

وما أن بلغ عرب النصارى خبر خروج الأمراء المسلمين مع جندهم متجهين نحو تجمعاتهم حتى قفـلوا راجعين إلى أرضهم تاركين الروم في مواجهة جيش أبي عبيدة[4] .

وعندما رأى أبو عبيدة تراجع عرب النصارى إلى أرضهم، حتى عـــاد لاستشارة أصحابه من جديد لقتال الروم الذين بقوا لوحدهم ، فأشار عليه خالد من جديد بالقتال ! فأخذ أبو عبيدة برأيه هذه المرة ، واشتبك جيش المسلمين

---

(١) قرقيساء : بلد على نهر الخابور عند مصب هذا النهر في الفرات . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ٤ ص «٣٢٨» . الناشر دار صادر بيروت .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٥١» ، الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) » » » : » جـ ٤ ص «٥١» » » » »

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص « ٥٢ » . الناشر دار المعارف بمصر .

بعدها بجيش الروم ، وكان النصر حليف المسلمين في هذه المعركة .

ووصل القعقاع مع جنده من أهل الكوفة إلى أرض الشام ليجد أن جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة ، قد انتصر على الروم منذ ثلاثة أيام..

فكتب أبو عبيدة إلى عمر في الجابية يسأله أيوزع على القعقاع وجنده نصيبهم من الغنائم التي ظفر بها المسلمون بعد انتصارهم على الروم ؟! رغم أنهم لم يشتركوا في القتال بل وصلوا بعد انتهائه بثلاثة أيام فجاءه كتاب عمر بإعطاء القعقاع وجنده نصيبهم من الغنائم ، وكأنهم اشتركوا في القتال وقال له : جزى الله أهل الكوفة خيراً ! يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار[1] .

* * *

في خلال السنوات الأربع ابتداء من العام السابع عشر للهجرة ، وحتى العام الحادي والعشرين للهجرة ، لم يحدثنا المؤرخون بشيء عن القعقاع ، واختفى ذكره من كتب التاريخ ، فأمر رحيله مع جنده من أهل الكوفة إلى أرض الشام بناء على أوامر الخليفة لمساندة جيش أبي عبيدة ، كان آخر ما حدثنا به المؤرخون .

على أن العام الحادي والعشرين للهجرة شهد دوراً جديداً للقعقاع في حروب وفتوحات أرض فارس ، ولا بد أنه عاد إلى هذه الأرض بعد أن قضى فترة من الوقت في أرض الشام ، عاد من جديد إلى أرض فارس ليشترك بموقعة نهاوند .

موقعة نهاوند :

تابع المسلمون فتوحاتهم في أرض فارس بعد موقعة (جلولاء) ، وكان ملك الفرس « يزدجرد » ، لا يزال يقود مقاومة جنده لزحف المسلمين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٥٢ » الناشر دار المعارف بمصر .

وفتوحاتهم . وقد كاتبه قواد جنده الذين كانوا لا يزالون يدينون له له بالولاء ، ليساعدهم ويمدهم بالجند والعتاد ليتصدوا لزحف المسلمين في محاولة جديدة لردهم عن أرض مملكتهم .

فكاتب « يزدجرد » أهل فارس المحصنين في الجبال ، وفي مناطق الباب والسند وخراسان وحلوان ليتحركوا ويتجمعوا في (نهاوند)[1].

وتجمع في (نهاوند) مائة وخمسون ألف فارسي ، ثلاثون ألفاً قدموا من أهل الجبال من بين منطقة الباب إلى منطقة حلوان ، وستون ألفاً قدموا من بين الأراضي الواقعة بين خراسان إلى حلوان . ومن بين الأراضي الواقعة بين سجستان إلى فارس وحلوان قدم ستون ألف مقاتل، وجعل « يزدجرد » على رأس هذا الجيش القائد « الفيرزان »[2] .

وكان سعد أمير جيش المسلمين ، قد أتى المدينة وخلف على الجيش « عبد الله بن عبد الله بن عتبان » .

وقد وصل إلى علم سعد تجمع الفرس في نهاوند ، فأبلغ الخليفة عمر بذلك حين التقى به في المدينة ، كما وصل لعمر كتاب أرسله عبد الله يبلغه فيه : بأنه قد تجمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل ، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك[3] .

جمع الخليفة عمر الناس للصلاة ، وقام فيهم خطيباً ، وأخبرهم بتجمع الفرس في نهاوند واستشارهم وقال لهم : هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني

---

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — ج٤ ص« ١٢٠ ». الناشر دار المعارف بمصر.
(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص « ١٢٢ » . الناشر دارالمعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، ج٤ ص « ١٢٣ » ، الناشر دار المعارف بمصر .

وأوجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ[1] بكم الأمور ، ويلتوي عليكم الرأي ، فمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه ، حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هـذين المصرين ، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم ، ويقضي ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا ملكهم[2].

ولكن عثمان بن عفـــان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، أشاروا عليه بالبقاء في المدينة وقالوا له : لا نرى ذلك ، ولكن لا يغبن عنهم رأيك وأثرك . وأضافوا : بازائهـم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن فض جموعهم ، وقتل ملوكهم ، وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك فاذن لهم ، واندب اليهم ، وادع لهم[3].

وقال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن شخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم[4] ، وإنك إن أشخصت[5] من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها حتى يكون مـا تدع وراءك أهم اليك ممـــا بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق ، فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم ، لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقـة إلى إخوانهم بالكوفة

---

(١) الفشغ والانفشاغ : اتساع الشيء وانتشاره .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص « ١٢٣ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) » » » » . جـ ٤ ص «١٢٣» » » » »
(٤) ذراريهم : اولادهم ونسلهم .
(٥) أشخص : أرجع ، أعاد .

مدداً لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا اليك غداً قالوا : هذا أمير العرب، وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكلبهم ، وألبتهم على نفسك . وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكنا كنا نقاتل بالنصر[1] .

فاستحسن عمر رأيهم وقال لهم : أجل والله ، لئن شخصت من البلدة لتنتقضن على الأرض من أطرافها وأكنافها ، ولئن نظرت إلى الأعاجم لا يفارقن العرصة ، وليمدنهم من لم يمدهم ، وليقولن : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب ، فأشيروا عليّ برجل أوله ذلك الثغر غداً . فقالوا له : أنت أفضل رأياً ، وأحسن مقدرة . قال عمر : أشيروا علي به ، واجعلوه عراقياً . قالوا : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم بأهل العراق ، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم . فقال عمر : أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنة إذا ليقها غداً ... فسأله أصحابه . من يا أمير المؤمنين ؟ فقال لهم : النعمان بن مقرن المزني فقالوا له : هو لها[2] .

وأرسل عمر إلى النعمان كتاباً مع « زر بن كليب » و« المقترب الأسود ابن ربيعة » وقال له : إني قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماه ، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن تجمع اليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصروا الله ، وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ١٢٥ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ١٢٦ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ١٢٦ » الناشر دار المعارف بمصر .

ومن الأسباب التي دفعت عمر لتولية النعمان قيادة جيش المسلمين المتجه إلى نهاوند ، رغبة النعمان في القتال والجهاد وكرهه لحياة الدعة والإستقرار التي يعيشها في منطقة (كسكر) ، التي ولاه عمر أمرها .

وكان عمر بكتابه للنعمان قد عين له خليفة في حال مقتله وكتب له: إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن[1] .

وحمل « قريب بن ظفر » ، كتاب عمر إلى أهل الكوفة ، فنادى مناديهم وخرجوا مسرعين للانضمام إلى النعمان وعلى رأسهم « حذيفة بن اليمان » ومعه « نعيم بن مقرن » .

كما كتب عمر إلى سلمى بن القين وحرملة بن قريطة وزر بن كليب والمقترب بن ربيعة ، قواد المسلمين الذين كانوا يقيمون مع جنودهم بين فارس والأهواز وقال لهم : أن اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، واقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري[2] .

وقطع أولئك القواد مع جنودهم ـ حيث أقاموا بين فارس والأهواز ـ الطريق على أية امدادات قد تصل لأهل (نهاوند) ، وحين اجتمع أهل الكوفة بالنعمان سلم قريب بن ظفر كتاب عمر إلى النعمان ، وجاء فيه : إن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية ، فأدخلهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب واستعن بهم ، وأشرب برأيهم ، وسل طليحة وعمرا[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ١٢٧ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج٤ ص « ١٢٧ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) وهم : طليحة بن خويلد ، وعمرو بن خويلد ، وعمرو بن معد يكرب ، وعمرو بن أبي سلمى العنزي .

وأرسل النعمان طليحة بن خويلد ، وعمرو بن أبي سلمى العنزي ، وعمرو بن معد كرب الزبيدي ، في مهمة استطلاعية أمام جيش المسلمين وطلب اليهم ألا يتوغلوا في مسيرهم.

وبعد مضي يوم وليلة ، عاد عمرو بن أبي سلمى ، فسأل أصحابه : ما رجعك ؟ فقال لهم : كنت في أرض العجم ، وقتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالمها . وخرج «طليحة بن خويلد» و «عمرو بن معديكرب» وبعد مضي يوم وليلة ، عاد عمرو فسأله أصحابه : ما رجعك ؟فقال لهم: سرنا يوماً وليلة ، ولم نر شيئاً ، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق .

على أن طليحة تابع مسيره وتوغل في أرض فارس ، ولما تأخر في العودة حسبه المسلمون قد ارتد عن الإسلام كما ارتد بعد وفاة الرسول ﷺ .. على أن طليحة عاد بعد أن اطلع على أخبار الفرس ، وعلم ما يبيتون للمسلمين ، وحين عودته كبر أصحابه ، فتساءل متعجباً : ما شأن الناس ؟ فأخبروه بأنهم حسبوه قد ارتد فرد عليهم قائلاً : والله لو لم يكن دين إلا العربية ما كنت لأجزر[١] العجم الطماطم[٢] هذه العرب العاربة[٣] .

وأبلغ طليحة النعمان ما علمه من أخبار الفرس ، وما اطلع عليه في مهمته الاستطلاعية التي خرج فيها ، وطمأنه بأن جيش المسلمين يستطيع أن ينطلق إلى نهاوند ، وليس هناك ما يعيق سيره وانطلاقه.

وعندها أمر النعمان الجيش بالتعبئة والاستعداد للرحيل ، وقسم الجيش كما هي العادة المتبعة : فجعل على مقدمته نعيم بن مقرن ، وعلى جناحيه

---

(١) أجزر فلاناً شاة ، أى أعطاه إياها ليذبحها ، ويقصد بقوله : ما كنت أمكن العجم من العرب .

(٢) الطماطم : العجم.

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري - جـ٤ ص«١٢٨» ، الناشر دار المعارف بمصر .

حذيفة بن اليمان ، وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة (الخيل) القعقاع بن عمرو وعلى الساقة (المؤخرة) مجاشع[1] .

وصل جيش المسلمين ليجد الفرس قد استعدوا لهم بالترتيب القتالي المعتاد : فكان على رأس جيشهم القائد « الفيرزان » ، وعلى جناحية « الزردق » و « بهمن جاذويه » ، وقد انضم لهذا الجيش كل من لم يلتحق بجيش الفرس في يوم القادسية ، ومن لم يسبق له أن التقى بالمسلمين في قتال أو معركة .

ودب الذعر في قلوب الفرس ، حين كبر المسلمون وعلى رأسهم النعمان ، لما رأوا جيش الفرس أمامهم .

وأمر النعمان بإقامة معسكره في المكان الذي وصل اليه ، وسرعان ما بدأ بعدها القتال ليستمر طيلة يومين .

وفي اليوم الثالث تمكن المسلمون من رد الفرس وصد زحفهم الذي استمر طيلة اليومين الماضيين ، ودفعوهم للخلف ليلوذوا بخنادقهم التي حفروها قبل بدء المعركة ، وليضرب بعدها المسلمون الحصار على تلك الخنادق .

وطال الوقت ، والفرس يلوذون بخنادقهم ، وضج المسلمون لذلك ، فهم راغبون بالقتال وغير متمكنين من أعدائهم .

وفي إحدى أيام الجمع قدم بعض قواد جيش المسلمين إلى النعمان يخبروه بأمر ذلك الحصار الذي طال الوقت به ، ويسألوه أن يجد لهم مخرجاً ويمكنهم من أعدائهم ! فطلب منهم النعمان التريث ، وبعث إلى فرسان المسلمين وشجعانهم ، وذوي الرأي والخبرة والتجربة منهم وقال لهم : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأنهم لا

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى ج ٤ ص «١٢٨» الناشر دار المعارف بمصر .

يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر المسلمون على انغاصهم[1] ، وانبعاثهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج ، فما الرأي الذي به نحمشهم ونستخرجهم إلى المنابذة ، وترك التطويل[2] .

فأشار عليه « عمرو بن ثبي » – وكان أكبر مسلمي جيش النعمان سناً – بالابقاء على حصارهم للفرس ، والتصدي لكل من خرج منهم للقتال ، على أن المسلمين لم يوافقوه الرأي ولم يرضوا به .

وأشار عليه عمرو بن معد يكرب ، بمقاتلتهم ومناجزتهم ! فبين له أصحابه من المسلمين بأن ذلك لا يكون والفرس متحصنون بخنادقهم ، وإن قاتلوهم وهم في خنادقهم لكانوا كمن يناطح الجدران[3] .

أما طليحة فأشار على النعمان قائلاً : قد قالا ولم يصيبا ما أرادا ، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدية ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموا لينشبوا القتال ، ويحمشوهم[4] ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادونا وجاد دناهم ، حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

فوافق النعمان على رأي طليحة ، واختار الفارس الذي سيكلفه بمهمة مناجزة الفرس ومناوشتهم ، ليخرجهم من خنادقهم ومن له بأشجع من القعقاع وأفضل منه ؟!!

وبالفعل أمر النعمان القعقاع ، بقتال الفرس ومناوشتهم ، فانطلق

---

(١) أنغاصهم : تحريكهم .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص «١٣٠» الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) » » » : » » ج ٤ ص «١٢٨» » » » »
(٤) استحمش : غضب .

القعقاع ومعه جنده لهذه المهمة ، وبقي لفترة من الوقت يقاتل الفرس مما جعلهم يتحركون من خنادقهم ، وعندها تراجع من أمامهم ، وظل على تراجعه ، فحسب الفرس أن الفرصة واتتهم ، فلحقوا بالقعقاع وجنده وقد غادروا مخابئهم وخنادقهم ، ظناً منهم أنهم تمكنوا من جند المسلمين، وعاد القعقاع وجنده إلى معسكر المسلمين الذين كانوا قد استعدوا للقتال وتجهزوا له ، وأمر النعمان جنـــد المسلمين بألا يغـادروا مواقعهم وألا يقاتلوا حتى يأمرهم بذلك فامتثلوا لأوامره ، واستتروا عـــن أعـين الفرس . ووصل الفرس لقرب معسكر المسلمين ، وبدأوا يرمون المسلمين بالرماح ويرشقونهم بالسهام ، وأصابوا العديد منهم بالجراح ، وضج المسلمون لذلك ، واشتكى بعضهم إلى بعض وقالوا للنعمان : ألا ترى ما نحن فيه ! ألا ترى إلى ما لقي الناس ، فمـا تنتظر بهم ؟ ائذن للناس في قتالهم . فكان النعمان يجيبهم مهدئاً : رويداً رويداً [١] .

وظل النعمان على تهدئتـه لجنوده ، حتى اقترب موعد مغيب الشمس وهبوب الرياح ، وهو الموعد الذي كان الرسول ﷺ يحب أن يقاتل فيه [٢] ، عندها تحرك النعمان بين جنده يشجعهم ويقوي من عزيمتهم ، وقال لهم : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتبـع آخر ذلك أوله ، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ، فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه ، وقد علمتم انقطاعكم من اخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم ، وقـــد ترون من أنتم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٤ ص«١٣٠». الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) « « « : « — جـ٤ ص«١٣١» « « « «

بازائه من عدوكم ، وما أخطرتم وما أخطروا[١] لكم ، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة[٢] وما ترون من هـــذا السواد ، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا ، فلا يكونن على دنياهم أحمى منكم على دينكم ، واتقى الله عبد صدق الله ، وأبلى نفسه فأحسن البلاء فانكم بين خيرين منتظرين ، احدى الحسنيين ، من بين شهيد حي مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير . فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكل قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه ، وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا أقضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيــأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة ، فإني حامــل إن شاء الله فاحملوا معاً . اللهم أعز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك[٣] .

وبعد أن بلغ النعمان أوامره لجنــــده ، رجع إلى مكانه ، وكبر التكبيرة الأولى ، ثم الثانية ثم الثالثة ، لينطلق بعدها جيش المسلمين وقد استكمل استعداداته وتعبئته لقتال الفرس .

وكان القتال شديداً ، والمعركة حامية الوطيس ، والنعمان يحمل راية الجيش وينقض على جند الفرس يقتلهم ويشتت جمعهم . وغابت الشمس ، وبدأ الليل ينشر رداءه على صفحة السماء ، وكثر عدد القتلى من الفرس، وملأت جثثهم ودماءهم أرض المعركة، حتى باتت الأرض لزجة ينزلق عليها الجند والخيل من كثرة ما عليها من دماء . وكان أن انزلق فرس النعمان في

---

(١) ما أخطرتم وأخطروا : تراهنتم وتراهنوا وتسابقوا .

(٢) الرثة : المتاع .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص «١٣٢» . الناشر دار المعارف بمصر .

أرض المعركة يومها ، وتسبب ذلك في مقتله ، وحصوله على الشهادة التي كان يطلبها ويدعو الله أن يمنحه إياها[1] .

وتناول راية جيش المسلمين من النعمان قبل أن تقع ، نعيم بن مقرن ، وأُخرج النعمان بعيداً عن أرض المعركة ، وغطي بثوبه . وأشار المغيرة على حذيفة بكتمان مقتل النعمان حتى تنتهي المعركة وقال له : اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم ، لكيلا يهن الناس[2].

وظل القتال محتدماً بين المسلمين والفرس حتى أظلمت السماء ، وعندها تمكن المسلمون من اختراق صفوف الفرس وتشتيت جموعهم ، فدب الذعر في نفوسهم ، وعمدوا إلى الفرار من أرض المعركة ، فلحق بهم المسلمون وتمكنوا من قتل الكثير منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار .

وكان ممن نجا وفر من أرض المعركة « الفيرزان » قائد جيش الفرس الذي انطلق نحو (همذان) فلحق بـه « نعيم بن مقرن » ، وسبقـه في ذلك القعقاع ، على أن « الفيرزان » ترك فرسه ، وصعد الجبل القريب من أرض المعركة . فترك القعقاع فرسه أيضاً ليلحق بـه ، وتمكن من قتله[3] .

ووصلت فلول جيش الفرس المهزوم إلى مدينة (همذان) ، والمسلمون في أثرهم ، ودخلوها وراءهم وضربوا حولهـا الحصار ، وعندما رأى « خسروشنوم » أمير همذان ذلك ، استأمن المسلمون على نفسه ، وعاهدهم على أن يضمن لهم أهل همذان ودستبى ، فلا يحاربوهم ولا يقاتلوهم .

فأمنه المسلمون وقبلوا عهده ، ليدخلوا بعد هذا الانتصار مدينـة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري. جـ٤ ص(١٣٢). الناشر دار المعارف بمصر.

(٢) « « « « جـ ٤ ص «١٣٢» « « « «

(٣) « « « : « . جـ٤ ص«١٣٣» . « « « «

نهاوند ، ويغنموا ما فيها[1] .

وبلغ أهل (الماهين) ، من أرض فارس خبر هزيمة أصحابهم في (نهاوند) ، وعهد المسلمين « لبخسروشنوم » ، وأن نعيم بن مقرن والقعقاع ابن عمرو ، قد نزلا مدينة همذان ، فراسلوا حذيفة ليقبل العهد منهم أيضاً ، فأجابهم لذلك .

أما في المدينة ، فكان الخليفة عمر قلقاً ينتظر أخبار معركة (نهاوند) وكان أن عاد أحد جند جيش المسلمين من (نهاوند) إلى المدينة ، وصادفه في طريقه أحد رجالات أهل المدينة ، فسأله : يا عبد الله ، من أين أقبلت ؟

قال : من نهاوند ، قال : ما الخبر ؟ قال : الخبر خير ، فتح الله على النعمان ، واستشهد ، واقتسم المسلمون في نهاوند ، فأصاب الفارس ستة آلاف[2] .

وفي اليوم التالي تحدث ذلك الرجل من أهل المدينة بما سمعه إلى أهله وأصحابه ، فبلغ ذلك عمر في مجلسه ، فبعث اليه ، ليتأكد مما سمعه ، فأبلغه بأن ما سمعه كان صحيحاً .

وأتى الخليفة بعد ذلك « قريب بن مظفر » ، بخبر الفتح الذي كتبه الله – عز وجل – للمسلمين في (نهاوند) . وكان فتح (نهاوند) في السنة الحادية والعشرين للهجرة النبوية الشريفة .

وقد أنشد القعقاع بعد انتصار المسلمين في موقعة نهاوند :

رمى الله من ذم العشيرة سادراً بداهيـــة تبيض منها المقادم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص(١٣٣) . الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري - جـ٤ ص «١٣٤».الناشر دار المعارف بمصر .

فدع عنك لومي لا تلمني فإنني أحوط حريمي والعدو الموائم

فنحن وردنا في نهاوند مورداً صدرنا به ، والجمع طرق واجم

وقال أيضاً :

وسائل نهاوند بنا كيف وقعنا وقد أثخنتهافي الحروبالنوائب

وقال أيضاً :

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا لشد ليال انتجت للأعاجم

فنحن لهـــم وعصل سجلها غداة نهاوند لإحدى العظائم

ملأنا شعاباً في نهاونـد منهم رجالاً وخيلاً أضرمت بالضرائم

وراكضهن الفيرزان على الصفا فلم ينجهِ منا انفساح المحارم[1]

★ ★ ★

كانت معركة نهاوند آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع بن عمرو في خـــلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ففي نهاية العام الثالث والعشرين للهجرة قتل خليفة المسلمين عمر بعد سنتين من موقعة نهاوند .

مقتل عمر بن الخطاب :

خرج عمر يطوف في سوق المدينه كما هي عادته دائماً ، يتفقد أحوال الرعية ويطلع على أمورهم ، ويعايشهم في حيـــاتهم ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، وكان نصرانيـاً ، فقال : يا أمير المؤمنين أعدني[2] على المغيرة بن شعبة ، فـان علي خراجاً كثيراً ، فسأله عمر : كم خراجك ؟

(١) معجم البلدان . لياقوت الحموي . جـ ٥ ص (٣١٤) . الناشر دار صادر بيروت .
(٢) أعدني ، أي انصرني وأعني .

قال أبو لؤلؤة : درهمان في كل يوم ، فسأله عمر من جديــد ، وأيش صناعتك ؟ فأجابه : نجــار ، نقاش ، حداد ، فرد عليه عمر : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغني أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحــا تطحن بالريح فعلت ، قال أبو لؤلؤة : نعم ، فاعمل لي لي رحا ، قال : لئن سلمتُ لأعملن لك رحــاً يتحدث بها مَن بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف أبو لؤلؤة . فقال عمر : لقد توعدني العبد آنفاً .

ثم انصرف الخليفة إلى منزله . وفي اليوم التالي التالي جــاءه كعب الأحبار وقال له : يا أمير المؤمنين اعهد ، فإنك ميت في ثلاثــة أيام ، فسأله عمر مستغرباً : ومـــا يدريك ؟ فقال له : أجده في كتاب الله عز وجل التوراة ، قال عمر الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال كعب الأحبار : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك ، وانه قد فنى أجلك .. وغادره بعدها كعب الأحبار ، ليعود في اليوم التالي ويقول له: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ، ثم جاءه في اليوم الذي يليه فقال له : ذهب يومان وبقي يوم وليلة ، وهي لك إلى صبيحتها ؟!!

وفي صبيحة اليوم الثــالث خرج عمر إلى الصلاة ، وأوكل إلى بعض أصحابه مهمة تسوية صفوف المصلين قبل بدء الصلاة ، ولما سويت وقف عمر (رضي الله عنه) فكبر لبدء الصلاة .

وفي أثناء ذلك اندس أبو لؤلؤة بين صفوف المصلين ، وقـــد دخل المسجد وبيده خنجر له رأسان ، وتقدم إلى عمر وضربه ست ضربات بخنجره ، أحدها أصابته تحت سرته ، وهي التي سببت مقتله بعد ذلك. وقد أصيب بخنجر أبي لؤلوه أيضاً كليب بن أبي بكير الليثي ، حيث كان يقف خلف عمر في الصلاة .

وسقط عمر على الأرض بعد اصابته ، والتفت إلى أصحابه يسألهم :

أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ فقالوا له : نعم يا أمير المؤمنين . فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : تقدم فصلي بالناس .

وصلى عبد الرحمن بالمسلمين في المسجد ، وقد حملوا الخليفة إلى منزله ، وبعد انتهاء الصلاة دعا عمر عبد الرحمن بن عوف وقال له : إني أريد أن أعهد اليك ، فقال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين نعم ، ان أشرت علي قبلت منك ، قال عمر : وما تريد ؟ قال عبد الرحمن : أنشدك الله ، أتشير عليّ بذلك ؟ قال عمر : اللهم لا ! فرد عبد الرحمن : والله لا أدخل فيه أبداً . قال عمر : فهب لي صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً .

وجاءه من طلبهم فقال لهم : انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم . وتوجه بحديثه إلى عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقال له : أنشدك الله يا علي إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس . وقال لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس. وقال لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس . ثم قال لهم جميعاً : قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم ، وليصل بالناس صهيب .

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري وقال له : قم على بابهم – يقصد على باب علي وعثمان وسعد والزبير الذين يتشاورون لاختيار الخليفة بعد عمر – فلا تدع أحداً يدخل اليهم ، وأوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان ، أن يحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ،

وأوصي الخليفة من بعدي بالعرب ، فإنها مادة الإسلام ، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فيوضع في فقرائهم ، وأوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم ، اللهم هل بلغت ! تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة .

وطلب عمر من ابنه عبد الله أن يخرج ليرى من طعنه ، وقال له : يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر من قتلني ؟ فخرج عبد الله وعاد ليقول لأبيه : قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة - وكان أبو لؤلؤة نصرانياً - ، يا عبد الله بن عمر اذهب إلى عائشة فسلها أن تأذن لي أن أدفن مع النبي ﷺ وأبي بكر ، يا عبد الله بن عمر ، إن اختلف القوم فكن مع الأكثر ، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن ، يا عبد الله ائذن للناس. ودخل بعدها الأنصار والمهاجرون ليودعوا خليفهم ويسلموا عليه ، فسألهم عمر عما إذا كان فعل أبي لؤلؤة بإيعاذ منهم وقال لهم : أعن ملأ منكم كان هذا ؟ فرددوا عليه منكرين ذلك وقالوا له : معاذ الله .

وسألوا عمراً وهو على فراش الموت أن يدعو له طبيباً وقالوا له : يا أمير المؤمنين لودعوت الطبيب ! فوافق وأتوا له بطبيب من بني الحارث ابن كعب ، فسقاه نبيذاً فخرج النبيذ مشكلاً ، فسقوه بعدها لبناً ، فخرج اللبن محضاً . فعرفوا بأنه لن يشفى مما به فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، اعهد . فقال لهم : قد فرغت[1] .

وهكذا توفي ثاني خليفة للمسلمين عمر بن الخطاب ، لأربع ليال بقين

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص (١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣) الناشر دار المعارف بمصر .

من شهر ذي الحجه من العام الثالث والعشرين للهجرة النبوية الشريفة[1].

ودفن بجوار الرسول ﷺ، وصاحبه في هجرته الخليفة الأول أبي بكر الصديق.

وبوفاة عمر انقضى عصر من أعظم عصور الدولة الإسلامية، وطويت صفحة مشرقـة من صفحات مجدهـا التليد، وانتهت مرحلة زاهرة من مراحل مجد هذه الدولة، لتبدأ مرحلة جديدة، مرحلة عاصفة بأحداثها وكان ذلك زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري جـ ٤ ص (١٩٣ - ١٩٤) الناشر دار المعارف بمصر.

الفصل الخامس

في خلافة عثمان بن عفان

أراد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، أن يختار الخليفة من بعده من قبل أولئك الذين توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم ، وهم العشرة المبشرون بالجنة[1] ، لذلك أوكل إلى الصحابي الجليل « عبد الرحمن بن عوف » ، أن يجمع أولئك الصحابة ويتشاور معهم على اختيار الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، وعلى أن يكون هذا الخليفة من أولئك الصحابة بالذات .

وأشار عمر (رضي الله عنه) على عبد الرحمن بن عوف ، أن ينأى بنفسه عن هذه الخلافة ، وألا يسعى اليها[2] ، وقبل عبد الرحمن نصيحة عمر ، وأصبح همه الآن اختيار الخليفة الجديد .

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً ، إلى يوم طعن عمر ، وحمل إلى منزله وحين دخل عليه أصحابه ليسألوه أن يختار خليفة من بعده ، قال لهم:

---

(١) راجع الصفحة : (٦٦) .

(٢) راجع الصفحة : (١٥٠) .

من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفه[1] ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : (إنه أمين هذه الأمة) ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيـاً استخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : (إن سالماً شديد الحب لله) .

فاقترح عليه أحدهم خليفة له وقال له : أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر . فرد عليه عمر غاضباً : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك ! كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغت فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فشرعنا آل عمر ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي ، وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد، وانظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه[2] .

ثم قال عمر لأصحابه : عليكم هؤلاء الرهط الذين قال الرسول ﷺ : (إنهم من أهل الجنة) ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله ، ولكن الستة : علي وعثمان ابنا عبـد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ ، والزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته ، وطلحة الخير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجـلاً ، فإذا ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه ، إن ائتمن أحـــداً منكم فليؤد اليه أمانته[3] .

---

(١) أبو عبيدةبن الجراح : توفي هذا الصحابي الجليل فيطاعون عمواس في العام الثامن للهجرة ودفن في بيسان .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٢٢٨» ، الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) « « « : « — جـ٤ ص«٢٢٨» « « « «

ثم دعا هؤلاء الصحابه في صباح اليوم التالي وقال لهم : إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم إختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم . ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ، ولكن كونوا قريباً[1].

واجتمع أولئك الصحابة ، وقام فيهم عبد الرحمن بن عوف وقال : أيكم يطيب نفساً أن يخرج نفسه من هذا الأمر ويوليه غيره ؟ فلم يرد عليه أحد ، فقال لهم : فإني أخرج نفسي وابن عمي[2] (يقصد سعد بن أبي وقاص) ، فأوكل اليه أولئك الصحابة مهمة اختيار الخليفة ، فأخذ منهم عبد الرحمن بن عوف عهداً أن يبايعن من يبايع .

وظل عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام على مشاورته للقوم حتى اختار الخليفة ، وكان صهيب يصلي بالناس خلال هذه الأيام الثلاثة[3] .

أرسل عبد الرحمن إلى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقال له : إن لم أبايعك فأشر عليّ . قال علي : عثمان .

وأرسل عبد الرحمن إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وقال له : إن لم أبايعك فمن تشير عليّ قال عثمان : علي .

وأرسل عبد الرحمن إلى الزبير بن العوام (رضي الله عنه) وقال له: إن لم أبايعك فمن تشير عليّ قال الزبير : عثمان .

وأرسل عبد الرحمن إلى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وقال له : من تشير عليّ ؟ فأما أنا وأنت فلا نريدها ، فمن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص «٢٢٩» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى، جـ٤ ص(٢٣٧) ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) « « « : « ـجـ٤ ص (٢٣٧) « « « «

تشير عليَّ ؟ قال سعد : عثمان[1] .

وفي الليلة الثالثة أرسل عبد الرحمن إلى مِسْورَ (ابن أخته) ، وقال له : إنك لنائم ، والله ما اكتحلت بغماض منذ ثلاث ليال . اذهب فادع لي علياً وعثمان ، وقال : يا خال ، بأيهما أبدأ ؟ قال عبد الرحمن : بأيهما شئت .

فخرج مِسْورَ وأتى علياً وقال له : أجب خالي ، فقال علي : بعثك معي إلى غيري ؟ قال مسور : نعم قال علي : إلى من ؟ قال مسور : إلى عثمان ، قال علي : فأينا أمرك أن تبدأ به ؟ قال مسور : قد سألته فقال : بأيهما شئت ، فبدأت بك ، وكان هواي فيك[2] .

وخرج علي مع مسور ، وأدخله على عبد الرحمن ، وانطلق إلى عثمان فوجده يصلي الوتر مع الفجر ، وانتظره حتى أتم صلاته وقال له : أجب خالي ، فسأله عثمان : بعثك معي إلى غيري ؟ فقال مسور : نعم ، إلى علي . قال عثمان بأينا أمرك أن تبدأ ؟ قال مسور : سألته فقال: بأيهما شئت[3] .

وخرج عثمان مع مسور حتى أتوا عبد الرحمن وكان قائماً في القبلة يصلي ، ولما أنهى صلاته التفت إلى عثمان علي وعثمان وقال : إني قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم أجد الناس يعدلون بكما ، هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال علي : اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي . فالتفت عبد الرحمن إلى عثمان وقال له : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه

---

(1) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – ج ٤ ص «٢٣٧» الناشر دار المعارف بمصر .
(2) « « « « ج ٤ ص «٢٣٧» « « « «
(3) « « « : « – ج ٤ ص «٢٣٧» « « « «

وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال عثمان : اللهم نعم[1] .

أشار عبد الرحمن بيديه إلى كتفي عثمان وقال لهما : إذا شئتما ! وخرجوا ثلاثتهم حتى دخلوا المسجد ، ونادى منادي الصلاة جامعة . وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عممه بها رسول الله ﷺ ، ومتقلداً سيفه حتى وقف على المنبر وطالت وقفته وهو صامت ، ثم دعا بما لم يسمعه أحد وتكلم أخيراً وقال : أيها الناس ، إني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما علي وإما عثمان ، فقم إلي يا علي ، فقام اليه علي ، فوقف تحت المنبر ، فأخذ عبد الرحمن بيده ، وقال له : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال علي : اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي فترك عبد الرحمن يد علي ثم نادى : قم إليّ يا عثمان ، فقام عثمان ووقف في المكان الذي كان يقف فيه علي ، فأمسك عبد الرحمن بيده وقال له : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال عثمان : اللهم نعم . فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ، ويده في يد عثمان ، ثم قال : اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان[2].

وتدافع المسلمون بعد ذلك يبايعون عثمان ، وجلس عبد الرحمن على الدرجة التي كان يجلس عليها رسول الله ﷺ من المنبر ، وأجلس عثمان على الدرجة الثانية ، واستمر المسلمون في مبايعتهم لعثمان ، وتلكأ علي فقال عبد الرحمن لما رأى ذلك : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٢٣٨ » ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص«٢٣٨» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) سورة الفتح ١٠ .

وكان أن بايع علي بعد ذلك ولم ينكث[1] .

وهكذا بايع المسلمون لعثمان بن عفان كثالث خليفة لهم بعد وفاة الرسول ﷺ .

وكانت أول مشكلة صادفت عثمان بعد أن أصبح خليفة المسلمين ، مشكلة قتل عبيد الله بن عمر ، للهرمزان وجفينة ، وابنة أبي لؤلؤة .

فمقتل عمر بن الخطاب كان مخططاً له من قبل الهرمزان وأبي لؤلؤة وجفينة . فعبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مر على أبي لؤلؤة مساء اليوم الذي سبق طعن عمر ، وكان مع أبي لؤلؤة جفينة (وهو نصراني قدم به سعد بن أبي وقاص من الحيرة ليعلم الناس في المدينة الكتابة) ، والهرمزان وكانوا ثلاثتهم يتناجون فيما بينهم ، فضيق عليهم عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذي قتل به بعد ذلك عمر .

وعلم عبيد الله بن عمر بذلك بعد أن طعن أبوه ، فانتظر ليرى ماذا سيحل بأبيه ، ولما توفي عمر ، استل عبيد الله سيفه وانطلق حتى أتى الهرمزان فقتله ، وقيل بأن الهرمزان قال : لا إله إلا الله لما أصابه حد السيف ، وانطلق عبيد الله بعد ذلك إلى جفينة وقتله كما قتل ابنة أبي لؤلؤة[2] .

أما أبو لؤلؤة فقد قبض عليه بعد أن طعن عمر ، وتملص أبو لؤلؤة من الناس وتمكن من أن يطعن نفسه قبل أن يحاكمه أحد .

وقد أمسك سعد بن أبي وقاص بعد ذلك بعبيد الله بن عمر ، ونزع السيف من يده وجذبه من شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، وحبسه في داره ريثما ينتخب الخليفة الجديد ويبت في أمره .

وهكذا أصبح عثمان بن عفان الخليفة الجديد ، وعليه أن يحسم هذه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٢٣٨ » . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) « « « « جـ ٤ ص « ٢٣٩ » « « « «

المشكلة ، فجمع اليه جماعة من المهاجرين والأنصار وقال لهم : أشيروا علي في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق ، فقال علي : أرى أن تقتله ، فرد بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد عفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك ، فقال : أنا وليهم وقد جعلتها دية ، واحتملتها في مالي [١] .

***

نحن لن نتطرق في هذا الفصل للسياسة التي انتهجها الخليفة عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) ، وحسبنا رصد الأحداث التي شارك فيها القعقاع بن عمرو خلال فترة الخلافة تلك ..

كان القعقاع مقيما في الكوفة في اثناء خلافة عثمان ، فقد طاب له سكناها ، بعد أن اشترك في معظم معارك المسلمين ضد المشركين ، وساهم في أكبر الفتوحات الاسلامية الكبرى في أرض العراق وفارس ، وفي أرض الشام أيضاً .

ولعل اقامة القعقاع في الكوفة ، كانت امتحاناً جديداً له ؟!! امتحاناً لحرصه الشديد على وحدة الدين الحنيف ، ولشدته في التعرض لكل فتنة أو ثورة قد تسبب تمزق وحدة الأمة المسلمة أو تشتتها واسراعه لدرء كل خطر يتهدد الدولة الإسلامية .

أقول لعل تلك الإقامة كانت امتحاناً للقعقاع ، لأن أول بوادر الفتنة والثورة على الخليفة وعامله خرجت من الكوفة بالذات .

كان « سعيد بن العاص » والي الكوفة ، تولى أمرها سنة ثلاثين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص « ٢٣٩ » الناشر دار المعارف بمصر .

للهجرة[1] ، خلفاً للوليد بن عقبة الذي عزله الخليفة عثمان بسبب شربه للخمر.

وقد أمضى « سعيد بن العاص » فترة من ولايته على الكوفة ، متبعاً سياسة حكيمة مع أهلها ، إلا أن هذه السياسة لم تستمر على منوال واحد ، ونجدها قد انحرفت بعد ذلك عن جادة الصواب !!

وكما قلت بدأت بوادر الفتنة في الكوفة ومن مجلس « سعيد بن العاص » بالذات .. فقد كان سعيد يجمع في مجلسه الخاص وجوه الناس في الكوفة وذوي الصلاح منهم . وفي احدى الليالي ، ومجلس سعيد ملتئماً ، وعنده وجوه أهل الكوفة ، ومنهم : مالك بن كعب الأرضي ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس النخيعان ، ومالك بن الاشتر ، وآخرين قال سعيد : إنما هذا السواد – يقصد سواد الكوفة – بستان لقريش ، فرد عليه الاشتر : أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا ؟

ووافقه على رأيه أصحابه الذين يحضرون المجلس معه ، وكان في مجلس سعيد يومها ، صاحب الشرطة « عبد الرحمن الأسدي » ، فقال للأشتر وأصحابه وقد ساءته اللهجة التي خوطب بها سعيد : أتردون على الأمير مقالته ! وأغلظ لهم عبد الرحمن القول . فما كان من الاشتر إلا أن قال لاصحابه : من هنا ! لا يفوتنكم الرجل . فقاموا اليه ، وضربوه ضرباً مبرحاً ، حتى أغمي عليه ، ثم ألقوا على وجهه الماء ، فأفاق من غيبوبته فسأله سعيد : أبك حياة ؟ فرد عليه عبد الرحمن الاسدي : قتلني من زعمت للاسلام – يقصد اعتدى على من تقول أنهم وجوه الناس وأهل الصلاح – فقال سعيد : والله لا يسمر منهم عندي أحد أبداً[2]

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٢٧١ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « « جـ ٤ ص « ٣٢٣ » « « « «

فانقطع أولئك النفر عن مجلس سعيد ، وجلسوا في بيوتهم يتحدثون بسيرة سعيد بين الناس ، وعن سياسة الخليفة المنحرفة بشأن الرعية .

فكتب سعيد إلى الخليفة عثمان يطلب منه الاذن بترحيل أولئك النفر من الكوفة ، فأذن له عثمان بذلك ، وأمر أن يرحلوا إلى الشام لعند عامله هناك « معاوية بن أبي سفيان » .

لقد كانت هذه أول بوادر الفتنة في الكوفة ، حاول عثمان وسعيد القضاء عليها بسرعة ، إلا أن هذه الفتنة ، اشتعلت من جديد في العام الرابع والثلاثين للهجرة .

ففي هذا العام خرج سعيد بن العاص لمقابلة الخليفة في المدينة ، وكان سعيد قد استعمل القعقاع بن عمرو على الحرب في الكوفة[1] ، وهو منصب يشابه منصب وزير الدفاع في أيامنا هذه ..

واستغل أولئك الذين أرادوا عزل سعيد وخلع الخليفة عثمان ، فرصة غياب سعيد فثاروا مطالبين بعزله ، فخرج « يزيد بن قيس » في الكوفة ، مطالباً بخلع عثمان ودخل مسجد المدينة ، وجلس فيه واجتمع اليه أولئك الذين يتبعونه فما كان من القعقاع الذي كان حاضراً يومها إلا أن قام وانقض على يزيد ، وأخذه منكراً عليه ما يطالب به من خلع الخليفة ، وعزل سعيد ، فقال له يزيد : إنما نستعفي من سعيد . فرد عليه القعقاع بكل حزم وقوة : هذا ما لا يعرض لكم فيه ، لا تجلس لهذا ولا يجتمعن اليك ، واطلب حاجتك ، فلعمري لتعطينها[2] .

فالقعقاع لم يرد أن يستغل أولئك الثائرين فرصة غياب سعيد عن الكوفة ، ليعلنوا ثورتهم ، ويبثوا الفرقة والتشتت بين أهل الكوفة ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٣٣١ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٣٣١ » الناشر دار المعارف بمصر .

فسعيد عامل الخليفة عثمان وطالما أبقاه عثمان فلا يحق لأحد أن يعزله إلا بأمر الخليفة .

وعرض القعقاع على يزيد أن ينتظر عودة سعيد ، ولا بد من أن سعيداً سيقضي له حاجته إن كان له حاجة ، أما الثورة والفتنة فهذا مما لا يرضاه القعقاع ولا يقبل به .

وفي رواية أخرى للطبري : أن « يزيد بن قيس الأرحبي » ، وقد اجتمع اليه أصحابه قال للقعقاع : ما سبيلك عليَّ وعلى هؤلاء ! فوالله إني لسامع مطيع ، وإني للازم لجماعتي إلا أني أستعفى ومن ترى من إمارة سعيد ، فرد عليه القعقاع منكراً مـــا يطالب به ومستغرباً في الوقت نفسه : استعفى الخاصة من أمر رضيته العامة ؟ فقال له يزيد : فذلك إلى أمير المؤمنين[1] . أي أن امير المؤمنين هو الحكم في هذا الموضوع فإن قبل بعزل سعيد فهو الذي نسعى اليه .

على أن يزيد وأصحابه لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، وقد لمسوا شدة القعقاع وعدم تهاونه في مثل هذه الأمور ، فكان أن لزموا منازلهم ، إلا أن بعضهم خرج إلى (الجرعة)[2] ، وانتظر عودة سعيد من المدينة ولما عاد ردوه إلى المدينة مطالبين بأبي موسى الأشعري بدلاً عنه[3] .

وكان أن أجابهم الخليفة أخيراً لما طلبوه ، وعين للكوفة والياً جديداً هو أبو موسى الأشعري ، كما وعدهم بأن الأمور ستنصلح وأن الأوضاع ستتحسن ، وأن سياسته معهم ستسير على ما يريدون وكتب لهم :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري . جـ٤ ص « ٣٤٦ » . الناشر دار المعارف بمصر.

(٢) الجرعة : موضع قرب الكوفة ، المكان الذي فيه سهولة ورمال ، وهو بـين النجف والحيرة . معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٢ ص « ١٢٨ » الناشر دار صادر بيروت .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ٤ ص « ٣٣٦ » . الناشر دار المعارف بمصر.

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأفرشنكم عرضي ، ولابذلن لكم صبري ، ولاستصلحنكم بجهدي ، فلا تدعوا شيئاً احببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما احببتم ، حتى لا يكون لكم عليّ حجة [1] .

على أن ريح الفتنة والثورة لم تهب من الكوفة فقط ، بل هبت من أرض مصر أيضاً .. فقد قدم وفد من أهل مصر إلى المدينة في شهر رجب من العام الخامس والثلاثين للهجرة [2] ، لمناظرة عثمان في سياسته ، ثم عاد الوفد بعد ذلك إلى مصره بعد أن وعده الخليفة خيراً ..

إلا أن وعود الخليفة كثرت ولم يتحقق منها أي شيء ، فكانت الثورة عامة هذه المرة ، خرج جماعة من أهل الكوفة ، وجماعة من أهل البصرة ، وجماعة أخرى من أهل مصر ، وقد اتفقوا فيما بينهم واتجهوا نحو المدينة .

إلا أن أصحاب رسول الله ﷺ ، وأهل المدينة خرجوا لرد أهل الأمصار عن المدينة ، وعسكروا خارج حدودها . ولما عرف الثائرون من أهل الأمصار بخروج صحابة رسول الله ﷺ ، قرروا العودة كل إلى مصره ، فهم لا يريدون قتال صحابة رسول الله ﷺ ولا الاشتباك معهم ...

ولما علم صحابة رسول الله ﷺ ، وأهل المدينة ، بعودة الثائرين ، عادوا إلى المدينة وقد حسبوا أن الثائرين قد عدلوا عما أتوا من أجله ، إلا أن الثائرين ، وقد علموا بعودة الصحابة وأهل المدينة إلى المدينة ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٤ ص«٣٣٦» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) الفتنة الكبرى ، عثمان : طه حسين ص «٢٠٨» الناشر دار المعارف بمصر ،

كروا عائدين إلى المدينة ودخلوهـا دون قتال ، وضربوا الحصار حول منزل الخليفة عثمان .

أما وقد ضرب أولئك الثائرون الحصار حول منزل عثمان ، مطالبين بعزله ، فليس أمام الخليفة إلا أن يكتب إلى أهل الأمصار ، ليهبوا لنجـدته وكتب اليهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيرا ، فبلغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى ، وقد قضى الذي عليـــه ، وخلف فينا كتابه ، فيه حلاله وحرامه ، وبان الأمور التي قدر ، فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي عنه ، ثم أدخلت في الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر أهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير اجرام ولا ترة فيما مضى إلا امضاء الكتاب ، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا على أشياء ممـا كانوا يرضون ، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنتين وأنا أرى وأسمع فازدادوا على الله عز وجل جرأة ، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت اليهـم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون ، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق[1] .

وكان أن خرج القعقاع بن عمرو من الكوفة لنجدة الخليفة مع من خرج منها ومن بقية الأمصار[2] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري — جـ٤ ص«٣٥٢». الناشر دار المعارف بمصر.

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص « ٣٥٢» الناشر دار المعارف بمصر .

ولم يخرج عثمان من داره إلا ليصلي بالناس ، وفي الجمعة التي جاءت بعد ضرب الحصار حول داره ، صلى عثمان بالناس ثم قام على المنبر يخاطب الثائرين فقال : يا هؤلاء العدى ، الله الله ! فوالله ، إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحوا السيىء إلا بالحسن .

فقام محمد بن مسلمة ، فقال : أنا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده ، فقام زيد بن ثابت فقال : ابغني الكتاب (أي أعطني المصحف ، ليقسم على صحة أقوال الخليفة) ، فثار اليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعده ، وتحدث غاضباً وأغلظ بالقول ، فثار القوم جميعهم ، ورمى الثوار المصليين في المسجد بالحجارة وأخرجوهم منه ، كما رموا الخليفة عثمان بالحجارة ، حتى أغمي عليه وهو على المنبر وكان أن حمل بعد ذلك وأدخل إلى داره[1] . وقد أتى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بعد ذلك يعود عثمان في منزله ، كما أتى الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله[2].

دام حصار الثوار لدار عثمان سبعين ليلة ، أتى الخبر بعد مضي ثمانية عشر يوماً من الحصار بأن أهل الأمصار قد خرجوا لنجدة عثمان ومنهم القعقاع الذي خرج من الكوفة[3] . فاشتد حصار الثوار لدار عثمان ومنعوا أحداً من دخولها والخروج منها ، كما منعوا عن عثمان وأهل داره الماء والطعام .

وأرسل عثمان عن طريق جيرانه من يبلغ علياً والزبير وطلحة ، وأزواج النبي ﷺ ، شدة الحصار عليه ومنع الماء والطعام عنه . فأسرع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٣٥٣» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، جـ ٤ ص «٣٥٣» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص «٣٨٦» . الناشر دارالمعارف بمصر .

علي لنجدته وخاطب الثوار قائلاً : يا أيها الناس ، إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله ! فردوا عليه : لا والله ولا نعمة عين ، لا نتركه يأكل ولا يشرب[1] .

ولما عرف علي بأنه لن يتمكن من مساعدة عثمان رمى بعمامته إلى دار عثمان ليبلغه بأنه أسرع لنجدته ولكنه لم يتمكن من فعل شيء ، وكان أن عاد لمنزله ... وأتت أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ لنجدة عثمان فمنعها الثوار من دخول داره أيضاً[2] .

على أن بعض شباب المدينة وشباب بني أمية استطاعوا النفاذ إلى دار عثمان لمساعدته وكان منهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب[3] .

ووصلت الأنباء أخيراً بأن الامداد القادم من الأمصار قد شارف على الوصول إلى المدينة ، فتحرك الثوار واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخل الدار ، واقتحموا غرفة عثمان وقتلوه وهو يقرأ القرآن الكريم[4] .

وهكذا قتل ثالث خليفة للمسلمين ، ونهب بيته ، كما نهب بيت مال المسلمين ، وانتهت بمقتله والغدر به مرحلة أخرى من مراحل تاريخ الدولة الإسلامية ، مرحلة لم تشهد إلا الفتن والاضطرابات والخلافات .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص «٣٨٦» . الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، ج ٤ ص« ٣٨٦ » . الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) الفتنة الكبرى . عثمان : طه حسين . ص «٢١٣» . الناشر دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج٤ ص (٣٨٩ – ٣٩٠) . الناشر دار المعارف بمصر .

ومهما قيل عن السياسة التي انتهجها الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، فإن ذلك لا يبرر مقتله والغدر به وما كان لمسلم أن يقتل مسلماً أو يغدر به .

وقد رأينا موقف القعقاع بن عمرو في هذه المرحلة ، وكيف أنه وقف في وجه الفتنة ولم يرد لهـا أن تنتشر وتندلع وكيف أنه تصدى لمحاولات التشتيت والفرقة التي سعت لزعزعة صفوف المسلمين وتفريق كلمتهم ، وكيف أنه أخيراً هب لنجدة الخليفة والدفاع عنه .

قتل عثمان بن عفان يوم الجمعة لثمانيـــة عشرة ليلة مضت من ذي الحجة ، سنة خمس وثلاثين للهجرة[1] ، وتولى خلافة المسلمين من بعده علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، فهل كانت هذه المرحلة أفضل من سابقتها ؟!!!

هذا ما سنعرفه من خلال الصفحات القادمة .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٤١٧» الناشر دار المعارف بمصر .



الفصل السادس

في خلافـــة علي بن أبي طالب

بايع المسلمون عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالخلافـة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام في العام الخامس والثلاثين للهجرة النبوية الشريفة[١] .

على أن هذه المبايعة لم تكن جماعية فقد بقي هناك من لم يبايع ؟!!

فسعد بن أبي وقاص لم يبايـع وقال لعلي : لا أبايـع حتى يبايـع الناس ، والله ما عليك مني بأس ، فقال علي : خلوا سبيله ، وعبد الله بن عمر لم يبايـع أيضاً وقال لعلي : لا أبايـع حتى يبايـع الناس ، فرد عليه علي : ائتني بكفيل ، فقال عبد الله بن عمر : لا أرى لي كفيلاً . وكان الاشتر حاضراً فقال لعلي : خلي عني أضرب عنقه ، فرفض علي وقال : دعوه أنا كفيله . ووجه حديثه لعبد الله قائلاً: إنك — ما علمت — لسيىء الخلق صغيراً أو كبيراً[٢] .

أما طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، فقد بايعـا على كره منهما في أرجح الروايات[٣] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٤٣٣» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص« ٤٢٨ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري. جـ٤ص(٤٣١-٤٣٥). الناشر دار المعارف بمصر .

وبذلك نرى بأن فترة خلافة علي بن أبي طالب ، بدأت والمسلمون غير مجمعين على توليه الخلافة. الأنصار بايعوا لعلي ، وبعض من المهاجرين ومن صحابة رسول الله ﷺ لم يبايعه ، أو بايعه كارهاً.

ولعل في هذه البداية غير المستقرة ولا الهادئة ما كان يشير إلى ما ستسفر عنه الأيام القادمة من فتن وخلافات ومعارك بين المسلمين أنفسهم.

وما أن أصبح علي خليفة للمسلمين حتى أرسل عماله إلى الامصار ليتولوا أمر رعيتها ، وكان أن بعث بعمارة بن شهاب إلى الكوفة ، وذلك في العام السادس والثلاثين للهجرة[1].

على أن عماراً صادف في طريقه إلى الكوفة القعقاع الذي كان عائداً من المدينة بعد أن تأخر في الوصول لنجدة عثمان ، وقال القعقاع لعمارة: وقد علم وجهته وغايته: ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً ، وإن أبيت ضربت عنقك[2].

فأبو موسى الاشعري كان عامل عثمان على الكوفة قبل وفاته ، وأهل الكوفة لا يعدلون بأميرهم أحداً ، ولا يرضون بدلاً عنه. وكان موقف القعقاع ذاك من عمارة وطلب منه العودة إلى المدينة.

واتبع علي (رضي الله عنه) مع صحابة رسول الله ﷺ ، ما كان يتبعه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، من ابقائهم في المدينة وعدم السماح لهم بمغادرتها إلا بعد أن يأذن لهم بذلك.

على أن الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله لم يكونا راغبين في البقاء في المدينة ، وكانا يطمعان بأن يوليهما على الكوفة والبصرة. على أن علياً

(١) تاريخ الرسل والملوك: للطبري جـ٤ ص «٤٤٢» الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) تاريخ الرسل والملوك: للطبري. جـ٤ ص«٤٤٣». الناشر دار المعارف بمصر.

كان يعلم بنوايهما وأطماعهما وقال لهما حين سألاه بأن يوليهما هذين المصرين: تكونان عندي فأتجمل بكما ، فاني وحش لفراقكما (أي متألم لذهابكما عني)[٣] .

على أن طلحة والزبير كانا يتحينان الفرصة لمغادرة المدينة ، واستئذنا علياً أخيراً بأن يخرجا للعمرة فأذن لهما ، فقصدا مكة المكرمة ، وبذلك استطاعا أن ينجيا بنفسيهما ويتخلصا من قبضة علي[٤] .

وكانت السيدة عائشة زوجة رسول الله ﷺ وأحبهن إلى قلبه ، في طريقها من مكة إلى المدينة حين علمت بمقتل عثمان ومبايعة علي من بعده ، فأغضبها ذلك وطلبت ممن معها أن يرجعوا بها إلى مكة ، فرجعوا بها . وهناك أظهرت سخطها على مبايعة علي ، وصرحت بعدم رضاها عن ذلك ، واعتبرت علياً هو المسؤول عن مقتل عثمان ، وأنه لا يحق له أن يخلفه من بعده ..

والتقى الزبير وطلحة بالسيدة عائشة في مكة ، وعزموا على مغادرتها ليتجهوا إلى أرض العراق ، وينادوا بما كانوا ينادون به في المدينة من المطالبة بالثأر لعثمان ، واختيار خليفة من بعده غير معترفين بخلافة علي .

واتفقوا أن تكون وجهتهم الأولى مدينة (البصرة) ، فاتجهوا اليها مع جندهم ومن كان متفقاً معهم .

كان عثمان بن حنيف والياً لعلي على البصرة ، بعث به فيمن بعث من عماله إلى الأمصار الإسلامية في العام السادس والثلاثين للهجرة[٣] .

وصلت السيدة عائشة والزبير وطلحة إلى منطقة (الحفير) ، وأقاموا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص « ٤٢٩ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « : « « « « جـ ٤ ص « ٤٤٤ » « « « «
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ ٤ ص « ٤٤٢ » . الناشر دار المعارف بمصر .

هناك مع جندهم، واتصلت الرسل بينهم وبين عثمان والي البصرة، وكان رسولا عثمان عمران بن حصين، وأبو الأسود الدؤلي[1].

على أن تلك الاتصالات لم تسفر عن أي اتفاق، وكان أن اقتتل أصحاب السيدة عائشة والزبير وطلحة، مع أصحاب عثمان وكان القتال بينهم شديداً، دام من وقت بزوغ الشمس إلى وقت غروبها، وكثرت القتلى في أصحاب عثمان، وأصيب الكثيرون من أصحاب الفريقين بالجراح[2].

وتنادى الفريقان فيما بينهما أخيراً إلى الهدنة، وعلى ارسال رسول إلى المدينة للتأكد فيما إذا كان الزبير وطلحة قد أكرها على البيعة، وسمح للسيدة عائشة والزبير وطلحة خلال فترة غياب الرسول في المدينة بدخول مدينة البصرة، والصلاة في مسجدها[3].

وعاد الرسول من المدينة، وكان «كعب بن سور»، ليبلغ الطرفين بأن الزبير وطلحة قد أكرها على البيعة .. على أن علياً وقد علم بما دار بين عثمان والسيدة عائشة والزبير وطلحة، وارسالهم لذلك الرسول، أسرع ليرسل إلى عامله عثمان كتاباً يجلو له فيه الأمر وقال له: والله ما أكرها إلا كرهاً على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظر[4].

ولما وصل هذا الكتاب لعثمان رفض أن يجاري عائشة والزبير وطلحة فيما يذهبون اليه وقد علم حقيقة الأمر.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ـ جـ٤ ص(٤٦١) الناشر دار المعارف بمصر.
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٤٦٦» الناشر دار المعارف بمصر.
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٤٦٦». الناشر دار المعارف بمصر.
(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري. جـ ٤ ص «٤٦٨» الناشر دار المعارف بمصر.

فما كان رد فعل أصحاب السيدة عائشة والزبير وطلحة على موقف عثمان ؟!! اعتدوا عليـه في المسجد وهو يصلي العشاء وأوسعوه ضربـاً وتعذيباً ونتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه،[1] ثم أطلقوا سراحه أخيراً خوفاً من انتقام أخيه سهيل بن حنيف الذي كان يقيم مع علي في المدينة .

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً ، إلى وقت علم علي (رضي الله عنه) ، بخروج السيدة عائشة وطلحة والزبير من مكة ، متجهين إلى أرض العراق تجهز هو وأصحابه وغادر المدينة باتجاه أرض العراق ، وهو لا يعلم فيما إذا كانت السيدة عائشة وطلحة والزبـير وأصحابهم يقصدون البصرة والكوفة ؟!!

ولما تأكد علي بأن وجهتهم إلى البصرة وكان قد عسكر بأصحابـه في الربذة[2] فرح لذلك وقال : ان أهل الكوفة أشد إليّ حباً ، وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم[3] .

وكتب إلى أهل الكوفة كتاباً قال لهم فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فاني اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه[4] .

وقدم عثمان بن حنيف على علي في (الربذة) بعض أن طرد مـــن البصرة ، وقد نتف شعر رأسه ولحيته وحاجبيه ، فلقي علي وقال له : يا أمير المؤمنين ، بعثتني ذا لحية وجئتك أمرد . فقال له علي : أصبت

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ٤٦٨ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) الربذة :
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٤٧٧» ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٤) « « « : « جـ ٤ ص «٤٧٧» « « « «

أجراً وخيراً ، إن الناس وليهم قبلي رجلان ، فعملا بالكتاب ، ثم وليهم ثالث ، فقالوا وفعلوا ، ثم بايعوني ، وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي وألبا الناس علي ، ومن العجب إنقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي ، والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن قد مضى ، اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما وأرهما المأساة فيما قد عملا[1].

وانطلق علي (رضي الله عنه) ، من الربدة باتجاه البصرة ، وكان على مقدمه أصحابه أبو ليلى بن عمر بن الجراح ، وكانت الراية مع محمد بن الحنيفة وعلى الميمنة عبد الله بن عباس ، وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة . وبلغ تعداد أصحاب علي يومها سبعمائة وستين مسلماً[2].

وكانت القبائل العربية تعرض على علي الانضمام اليه وهو في طريقه إلى البصرة ، فلما نزل بأصحابه في (فيد)[3] ، أتته قبيلة أسد طيء ، وعرضوا عليه الانضمام إلى أصحابه ، فقال لهم : الزموا قراركم ، في المهاجرين كفاية[4].

كما عرضت عليه قبيلة بكر بن وائل أن تنضم اليه حين وصل إلى (ذي قار) ، فرد عليهم بمثل ما رد على قبيلة أسد طيء[5] وقد حمل كتاب علي إلى أهل الكوفة محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن عون[6] . على أن هذين الرسولين لم يفلحا في اقناع أهل الكوفة بالانضمام إلى علي .. فبعث علي في أثرهما عبد الله بن عباس ، والاشتر . وأيضاً لم يبلغا من أهل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص « ٤٨٠ » . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ـ ج ٤ ص « ٤٨٠ » الناشر دار المعارف بمصر
(٣) فيد : بلدة في نصف طريق مكة من الكوفة . فتوح البلدان للبلاذري ص (٧٥٧) .
(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص « ٤٨٠ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٥) « « « : « . ج ٤ ص « ٤٨١ » « « «
(٦) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٤٧٧ » الناشر دار المعارف بمصر .

الكوفة شيئاً . ولما رجع ابن عباس بذلك إلى علي ، أرسل علي هذه المرة ابنه الحسن ومعه عمار بن ياسر[1] . والتقى الحسن بن علي وعمار بن ياسر بأبي موسى الأشعري والي الكوفة في المسجد ، ولما لقي أبو موسى الحسن ضمه اليه وقال لعمار بن ياسر : يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين (يقصد عثمان بن عفان) ، فأحللت نفسك مع الفجار ! فرد عليه عمار : لم أفعل ، ولم تسؤوني ؟ وقطع الحسن عليهما حديثهما وأقبل على أبي موسى قائلاً : يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ! فوالله ما أردنا إلا الاصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء . فقال له أبو موسى : صدقت بأبي أنت وأمي ! ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب ، قد جعلنا الله عز وجل إخواناً ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً)[2]. وقال عز وجل : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم)[3] . فغضب عمار وساءه ما قاله أبو موسى وقام وقال : يا أيها الناس ، إنما قال له خاصة : أنت فيها قاعداً خير منك قائماً[4] . وطال الحوار والجدال بين أهل الكوفة في المسجد وبين عمار ، كل يدلي برأيه ويبين وجهة نظره . .

وكان القعقاع بن عمرو حاضراً في المسجد يومها فقام وقال : إني لكم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ٤٨٠ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) سورة النساء ٢٩ .

(٣) سورة النساء ٩٣ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك: للطبري جـ٤ ص « ٤٨٣ » الناشر دار المعارف بمصر .

ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولاً هو الحق ، أما ما قال الأمير فهو الأمر لو أن اليه سبيلا ، وأما ما قال زيد (زيد بن صوحان ، الذي قدم البصرة رسولاً للسيدة عائشة والزبير وطلحة إلى أهل الكوفة ينصحهم بعدم الانضمام إلى علي ، وأن يبحثوا عن قتلة عثمان[1]) فزيد في الأمر فلا تستنصحوه فإنه لا ينتزع أحد من أحد من الفتنة طمن فيها وجرى اليها ، والقول الذي هو القول إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا علي يلي بما ولى ، وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع[2].

واستمر الجدال إلى أن حسمه الحسن بن علي أخيراً قائلا : أيها الناس ، إني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء[3] .

فكان أن خرج من أهل الكوفة تسعة آلاف للانضمام إلى علي ، سلك ستة آلاف ومائتان طريق البر ، والفان وثمانمائة طريق الماء[1] .

وكان القعقاع ممن خرج من أهل الكوفة للانضمام لجيش علي . ولما التقى علي بأهل الكوفة فرح بقدمهم ، وكان ذلك في (ذي قار) قال لهم : يا أهل الكوفة ، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم ، حتى صارت اليكم مواريثهم ، فأغنيتم حوزتكم ، وأعنتم الناس على عدوهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فان يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وبايناهم حتى يبدأونا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى ج ٤ ص «٤٨٣» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٤٨٤ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) « « « : « ج ٤ ص « ٤٨٧ » « « « «

واجتمع في ذي قار سبعة آلاف ومائتان مسلم . أصحاب علي الذين خرجوا معه من المدينة ، مع ما انضم اليه من أهل الكوفة وقد خرج عن طريق البر مع مائتين لحقوا به ممن خرجوا عن طريق الماء . وبقيت قبيلة عبد القيس وكانت تعد بالآلاف تنتظر علياً في الطريق بين ذي قار والبصرة للانضمام اليـــه ، وبقي هناك ألفان وأربعمائة مسلم في طريق الماء[1]. كان القعقاع بن عمرو على رأس جماعة من فرسان أهل الكوفة ومعه رؤساء الجماعات الآخرين ، سعر بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم ابن شهاب[2] .

وأرسل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهـه) ، القعقاع بن عمرو رسولاً له إلى البصرة ، لمقابلة السيدة عائشة والزبير وطلحة وقال له : الق هذين الرجلين يابن الحنظليـــة فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة ، وسأله : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة مني ؟ فرد عليه القعقاع : نلقاهم بالذي أمرت به ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . فأثنى عليه علي قائلاً : أنت لها[3] .

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، وبدأ بالسيدة عائشة ، فأستئذن ثم دخل عليها وقال لها : أي أمه ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، اصلاح بين الناس ، قال القعقاع : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت اليهما فجاءا ، فقال لهما القعقاع : إني سألت أم المؤمنين : ما اشخصها وأقدمها هذه البـــلاد ؟ فقالت : اصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٤ ص «٤٨٧» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « : « ـــجـ٤ ص (٤٨٨) « « « «
(٣) « « « : « — جـ٤ ص«٤٨٨» « « « «

قال القعقاع : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان (رضي الله عنه) ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل بـه كان احيـاء للقرآن . فرد عليهما القعقاع : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجـلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفلت – يعني حرقوص بن زهير – فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم بـه هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال القعقاع : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا المكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر ، وذهـاب هذا الثأر ، وبعثة الله في هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم اليه وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجـــل . فوافقوا الرأي وقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر . فرجع القعقاع إلى علي وأخبره ما كان بينه وبين السيدة عائشة والزبير وطلحة[1]

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص «٤٨٩» الناشر دار المعارف بمصر .

وكانت وفود من أهل البصرة قد جاءت أهل الكوفة في معسكر علي لتعلم أمرهم وترى فيما نهضوا اليه ، وكان القعقاع في معسكر علي وقد رجع من البصرة . فقام علي في الناس خطيباً ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ . وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة وانعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ، ثم الذي يليه وقال : ألا إني راحل غداً فارتحلوا ، ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس ، وليُغْنِ السفهاء عنى أنفسهم[1] .

وكان أهل الكوفة لا يزالون على ترددهم واستفسارهم عن موقف علي (رضي الله عنه) ، من أولئك الثائرين في البصرة ، وممن أتى علي ليسأله عن ذلك ، الأعور بن بنان المنقري ، الذي سأله عن سبب اقدامه على القوم في البصرة ، فقال له علي : على الاصلاح واطفاء النائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم ، وقد أجابوني ، فسأله الأعور: فإن لم يجيبونا ؟ قال علي : تركناهم ما تركونا ، فعاد ليسأله : فإن لم يتركونا ؟ قال علي : دفعناهم عن أنفسنا ، فسأله : فهل لهم مثل ما عليهم من هذا ؟ قال علي : نعم[2] .

ووقف علي أخيراً يخطب في الناس ويقول : يا أيها الناس ، املكوا أنفسكم ، كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم ، فإنهم اخوانكم ، واصبروا على ما يأتيكم ، وإياكم أن تسبقونا فان المخصوم غدا من خصم اليوم[3] .

وكانت آخر رسل لعلي إلى القوم في البصرة في محاولة أخيرة للاصلاح والتفاهم ، حكيم بن سلامة ، ومالك بن حبيب وحملها علي قوله لمن في

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى ، جـ٤ ص(٤٩٣) ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري – جـ ٤ ص «٤٩٦» الناشر دار المعارف بمصر .
(٣) « « « « جـ ٤ ص «٤٩٦» « « « «

البصرة : إن كنتم على ما فارقتم عليـه القعقاع بن عمرو فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر[1] .

وخرج من البصرة الأحنف بن قيس وبنو سعـد واتجهوا إلى معسكر علي ليستفسروا عن موقفه منهم ، وقال له الأحنف : يا علي ، إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك ظهرت عليهم غداً أنك تقتل رجالهم وتسبي نساءهم فقال له علي : ما مثلي يخاف هـذا منه ، وهل يحل هذا إلا ممن تولى وكفر ، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل : (لست عليهم بمصيطر ، إلا مـن تولى وكفر)[2] ، وهم قوم مسلمون ! هل أنت مغن عني قومك ؟ فقال له الأحنف : نعم ، واختر مني واحدة من اثنتين ، إما أن أكون آتيك فأكون معك بنفسي ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف[3] وكان أن اعتزل الأحنف مع جماعة من تميم ، وخندف ، وسعد ، القتال ولم يشتركوا مع أي من الطرفين ، وكان أن دخلوا البصرة بعد انتصار علي في موقعة الجمل .

موقعة الجمل :

لقد جرت موقعة الجمل بين أصحاب علي (رضي الله عنه) ، وأصحاب السيدة عائشة والزبير وطلحة ، في يوم الخميس من منتصف شهر جمادى الآخرة ، في سنة ست وثلاثين للهجرة[4] .

وقد سميت هذه الموقعة (بوقعة الجمل) ، نسبه إلى الجمل الذي كانت تركب عليه السيدة عائشة ، والذي حارب أصحابها من حوله ، والذي أصبح رمزاً في الموقعة للدفاع عن السيدة عائشة ، وكان اسم ذلك الجمل (عسكر)[5] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٤٩٦» الناشر دار المعارف بمصر .

(٢) سورة الغاشية (٢٢ ، ٢٣) .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص « ٤٩٧ » الناشر دار المعارف بمصر .

(٤) » » » » . جـ٤ ص «٥٠١» » » »

(٥) » » » : » جـ٤ ص «٥٠٧» » » »

سار علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، بأصحابه من (الزاوية) للقاء السيدة عائشة والزبير وطلحة ، الذين ساروا من (الفرضة) للقاء علي . وتم لقاؤهم عند موضع يقال له قصر عبيد الله بن زياد[1] .

ولما تراءى الجمعان ، خرج الزبير على فرس عليه سلاح ، فقيل لعلي: هذا الزبير ، فقال علي : أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكره، وخرج طلحة ، فخرج اليهما علي ، فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال علي : لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . ألم أكن أخاكما في دينكما ، تحرمان دمي وأحرم دماءكما ! فهل من حدث أحل لكما دمي ؟ فرد عليه طلحة : ألبت الناس على عثمان رضي الله عنه ، قال علي : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين)[2] ، يا طلحة ، تطلب بدم عثمان رضي الله عنه ! فلعن الله قتلة عثمان : يا زبير ، أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم ، فنظر إليّ فضحك وضحكت اليه ، فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله ﷺ : (صه ، انه ليس به زهو ، ولتقاتله ولتقاتلنه وأنت له ظالم) ؟ فقال الزبير : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا اقاتلك أبداً . فانصرف علي إلى أصحابه ، وقال لهم : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم ، ورجع الزبير إلى السيدة عائشة فقال لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطني هذا ، قالت : فماذا تريد أن تصنع ؟ قال الزبير : أريد أن أدعهم وأذهب ، فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين الغارين (الجيشين) ، حتى إذا حدد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص «٥٠١» الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) سورة النور (٢٥) .

بعضهم لبعض اردت أن تتركهم وتذهب ! أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، قال الزبير : إني قد حلفت ألا أقاتله ، وأحفظه ما قال له ، فقال له ابنه : كفر عن يمينك ، وقاتله ، فدعـــا بغلام له يقال له مكحول ، فأعتقه ، ليكفر عن يمينه[1] .

وكان أن اشتبك الجمعان بعد ذلك ، وكان القتال شديداً ، وكل فريق يجتلد ويقاتل ويدافع عن أصحابه ، ولما انتصف النهار ، لاحت بوادر الهزيمة على أصحاب السيدة عائشة والزبير وطلحة ، وعندها نادى الزبير: أنا الزبير هلموا إليّ أيها الناس ، وكان معه مولى له نادى هو الآخر : أعن حوارى رسول الله ﷺ تنهزمون !

وكان أن انصرف الزبير بعد ذلك نحو وادي السباع ، تاركاً أرض المعركة وقـــد توقع الهزيمة لأصحابه ، ومر الزبير في طريقه بالأحنف معسكراً بأصحابه متجنباً القتال مع أي من الفريقين ، فلما رآه الأحنف قال : والله ما هذا بخيار[2] ، وقال لأصحابه : من يأتينا بخبره ؟ فقال عمرو بن جرموز من أصحاب الأحنف : أنا .

واتبعه ، فلما لحق بالزبير ، نظر اليه الزبير وقال له بغضب :ما وراءك؟ قال عمرو : إنما أردت ان أسألك ، فرد عليه غلام للزبير يدعى عطية كان مع الزبير : انـــه معد ، فقال عمرو : ما يهولك من رجل ! وكان أن حان موعد الصلاة فقال عمرو : الصلاة ، فقال الزبير : الصلاة ،ونزلا عن فرسيهما واستغل عمرو بن جرموز انشغال الزبير ، وأتى من خلفــه وطعنه في جيب درعه ، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه ، وترك غلامه الذي انتظر ذهاب عمرو ، ليدفن الزبير ، ويعود للقوم بخبر مقتله[3] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٥٠١-٥٠٢ » الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) أى لا باختياره ، وإنما اضطر إلى ذلك .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . ج ٤ ص «٥٣٥» . الناشر دار المعارف بمصر .

وهكذا قتل الزبير غدراً ، بعـــد أن ترك أرض المعركة ، وتجنب القتال ، فكان أن قتله ابن جرموز غدراً ..

ومر القعقاع وأصحابه والمعركة على أشدها بطلحة وهو يقاتل ويقول: إليّ عباد الله ، الصبر الصبر ، فقـــال له القعقاع يا أبا محمد : إنك لجريح – فطلحة أصابه سهم لا يعرف راميه ، في ركبته وقد وضع قدمه في سرج فرسه موزجه[1] بالدم وأرهقه ذلك – وإنك عما تريـد لعليل ، فادخل الأبيات ، فطلب طلحة من غلامه أن يبعده عن أرض المعركة وقال له : أردفني وابغني مكاناً لا أعرف فيـه ، فلم أر كاليوم شيخاً أضيع دماً مني . وكان أن انطلق بـه غلامه إلى دار خربة من دور البصرة ، مات طلحة فيها ، ودفن في بني سعد[2] .

ولم يبق إلا السيدة عائشة في هودجهـا على الجمل ، يقاتل من بقي من أصحابها حولهـا ، يأخذون بخطم الجمل ويمنعون أحد من الاقتراب منه ، واستبسلوا في الدفاع عنه ، كأنهم يدافعون عن السيدة عائشة نفسها .

وعرف القعقاع بأن في مقتل الجمل ، اكتمال النصر لاصحاب علي ، فنادى بجير بن دلجة ، وقال له : يا بجير بن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين ، فقال بجير منادياً قومه : يال ضبة ، يا عمرو بن دلجة ، ادع بي اليك ، فأتاه عمرو فقال له بجير : أنا آمن حتى ارجع ؟ فرد عليه عمرو : نعم قال بجير : فاجتث ساق البعير ، ورمى بنفسه على شقه وجرجر البعير . وقال القعقاع لاصحابه خلفه : أنتم آمنون . واجتمع هو وزفر بن الحارث – وكان زفراً آخر

---

(١) الموزج : الخلف .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري. جـ٤ ص(٥٠٨،٥٢٨). الناشر دار المعارف بمصر .

من قاتل في ذلك اليوم – وقطعا بطان البعير ، وحملا الهودج الذي فيه السيدة عائشة وأنزلاه[1] .

وارتجز القعقاع يومها :

إذا وردنا آجنـــا جهرناه   ولا يطاق ورد ما منعناه[2]

وكان القعقاع أول من دخل على السيدة عائشة بعد أن استأذنها ، وقد انتهت المعركة بهزيمة أصحابها بعد مقتل الجمل ، واحضار هودجها إلى معسكر علي ، وسلم عليها فقالت له : إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا بكذا ، فهل تعرف كوفيك منهما ؟ (أي الرجل من أهل الكوفة) ، فرد عليها القعقاع : نعـــم ، ذاك الذي قال : (أعق أم نعلم) ، وكذب والله ، إنك لأبر أم نعلم ، ولكن تطاعي . فقالت السيدة عائشة ، لما سمعت ذلك : والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وخرج القعقاع من عند السيدة عائشة وذهب لعنــد علي (رضي الله عنه) ، وأخبره بما جرى بينـه وبين السيدة عائشة ، فسأله علي عن الرجل الذي قال مثل تلك المقالة بحق السيدة عائشة ، فأخبره القعقاع بأنه (أبو هالة) ، فقال علي نفس ما قالته السيدة عائشة : والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[3] .

فعلى الرغم من ثورة السيدة عائشة وخروجها على علي ، إلا أن القعقاع لم يزل ينظر اليها كأبر أم للمؤمنين ، فهي زوج رسول الله ﷺ وهي تستحق كل احترام وتقدير ولا يليق أن تهان أو تصاب بأذى ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج ٤ ص « ٥٢٧ » ، الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « « « ج ٤ ص « ٥٢٧ » « « « «
(٣) « « « : « . ج ٤ ص « ٥٣٧ » . « « « «

وما قتل الجمل الذي نادى به القعقاع إلا محـاولة لتفادي اصابتها بسهم طائش قد ينالها وهي على هودجها .

أما تلك الموقعة فقد أسفرت عن مقتل عشرة آلاف من أهل البصرة وخمسة آلاف من أهل الكوفة ، وحول الجمل قتل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي والنصف الآخر من أصحاب السيدة عائشة[1] .

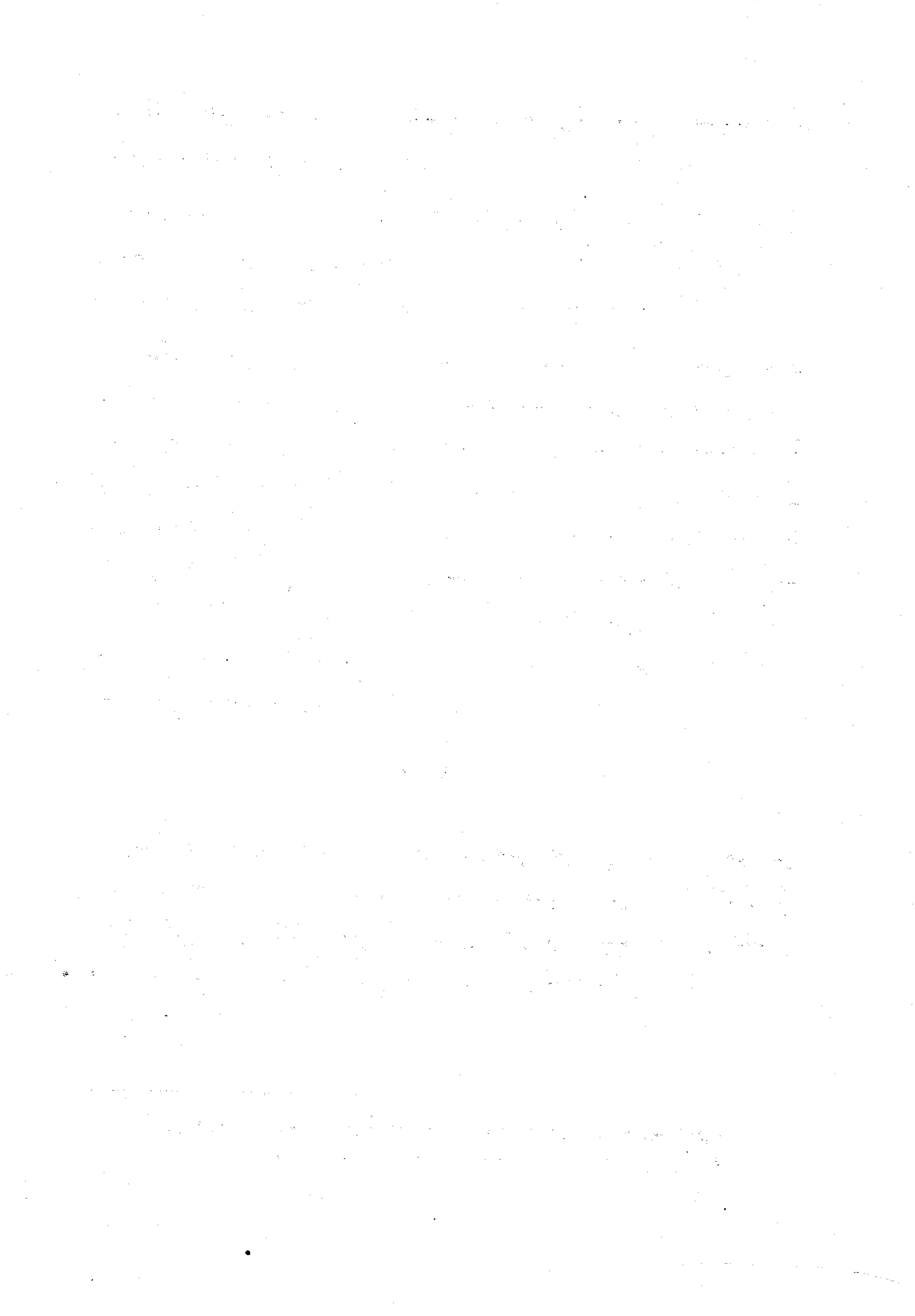
وهكذا قضى علي (رضي الله عنه) - متألماً من كثرة القتلى وتفرق الأمة - على هـذه الفتنة ، على أن هناك فتنة أخرى وثورة جديدة ، هبت ريحها عليه من الغرب هذه المرة من أرض الشام ، من عند معاوية ابن أبي سفيان وأصحابه ، ولقد اشترك القعقاع مع علي وأصحابـه في قتال معاوية وأصحابه يوم صفين ، على أن المؤرخين لا يذكرون لنا ذلك بالتفصيل ، وما أوردوه في هذا الخصوص هو قول القعقاع : ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتـال القلب يوم الجمل بقتال صفين ، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا ونتكىء على ازجتنا ، وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم[2] .

* * *

وعند هذا الحد لم نعـد نعثر للمؤرخين على أي حديث آخر عن القعقاع بن عمرو ، وآخر ما ذكر عنه هو حديثه حول شدة القتال في موقعة الجمل ، وموقعة صفين ، ليعود المؤرخون فيغفلوا ذكر القعقاع مجدداً ، وكأن دوره قد انتهى في تاريخ الدولة الإسلامية ؟!!

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص«٥٣٩» . الناشر دار المعارف بمصر .
(٢) « « « « جـ ٤ ص « ٥٣٢ » « « « «



الفصل السابع

القعقاع الشاعر

في هذا الفصل ، سنتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصية القعقاع بن عمرو .. سنتحدث عن القعقاع الشاعر . فنحن لم نعثر على أشعار للقعقاع قبل إسلامه ، وكل ما نسب اليه من شعر كان بعد إسلامه ، إذ اتصل بالحديث عن معارك المسلمين ، وانتصاراتهم وفتوحاتهم .

لقد كان شعر القعقاع مرآة صادقة عكست كل مظاهر البطولة والشجاعة التي أبداها في المعارك ، وسجلاً دقيقاً لتفاصيل الأحداث وتتابع الانتصارات التي اشترك فيها جيش المسلمين في العراق والشام .

ولم يترك القعقاع مناسبة لتصوير جهاد المسلمين ، وحسن بلائهم ، وعظمة تضحيتهم ، إلا وصورها وتحدث عنها ، كأن انتصار المسلمين لا يكتمل إلا برسم هذه الصورة ، وجهادهم لا يوفى حقه إلا بالإشادة بما فعلوه في ساحات القتال .

وعلى الرغم من كثرة ما أنشده القعقاع من أشعار ، إلا أننا لم نعثر له على قصائد متكاملة ، وكل ما ذكره المؤرخون ، إنما هو أبيات

شعرية ارتجزها في المعارك وفي مناسبات انتصار المسلمين على أعدائهم .

ولقد اقتصر شعر القعقاع على غرض واحد ، غرض تصوير المعارك والإشادة بشجاعة المجاهدين وبطولتهم ، ورثاء من استشهد منهم . حتى لنستطيع أن نطلق على شعره شعر الفتوح بالدرجة الأولى .

فنحن لا نعثر للقعقاع على شعر الحنين مثلاً ، وقد عزاه بعضهم[1] ، لوجود جموع كبيرة من أبناء عمومته في حرب العراق ، ووجود زوجته النخعية معه كذلك .

كما لا نعثر على شعر يتحدث فيه عن حياته الخاصة ، أو عواطفه الشخصية ، ولعل حياة الجهاد التي أرادها القعقاع لنفسه لم تترك له المجال ليلتفت إلى حياته الخاصة وعواطفه الشخصية .

كان شعر القعقاع ، واضحاً ، بسيطاً ، صادقاً ، لا غموض فيه ولا تعقيد ، ينساب بكل هدوء وجزالة ، يؤثر في النفوس ولا يتكلفها أي جهد أو عناء .

ولكي تكون الصورة متكاملة عن هذا الفارس العربي ، سنعمد إلى تسجيل بعض أشعاره من جديد في هذا الفصل ، ونتحدث عن المناسبة التي قيلت فيها ، متبعين الترتيب الزماني فيها :

فبعد انتصار المسلمين المظفر على جيش الروم في معركة اليرموك ، يقف القعقاع ينشد مفاخراً بانتصار جيش المسلمين مذكراً بانتصارات هذا الجيش في أرض العراق ، متحدثاً عن تتابع الفتوحات وسقوط معاقل الروم ومدنهم أمام زحف جيش المسلمين ، راسماً صورة بطولية لهذا الجيش الذي تتابعت انتصاراته وكيف انتهى الحال بجند الروم ، وقد

---

(١) شعر الفتح الاسلامية في صدر الاسلام : النعمان عبد المتعال القاضي . ص (٢٣٤) الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .

لحقت بهم الهزيمة ، وسقطوا في وادي الرقاد (الواقصة) ، ليبقى ذكر هذه الملحمة التاريخية مسطراً أبد الدهر ، فيقول :

ألم ترنا على اليرموك فزنا — كما فزنا بـأيام العراق .

فتحنا قبلها بصرى وكانت — محرمة الجناب لدى البعاق[1]

وعذراء المدائن قـد فتحنا — ومرج الصفرين على العتاق[2]

قتلنا من أقام لنا وفئنا — نهابهم بأسياف رقـاق[3]

قتلنا الروم حتى ما تساوى — على اليرموك ثفروق الوراق .

فضضنا جمعهم لما استحالوا — على الواقصة البتر الرقاق[4]

غداة تهافتوا فيها فصاروا — إلى أمر يعضل بالذواق[5]

ويحدثنا القعقاع عن اشتراكه في حصار أسوار مدينة دمشق ، وكيف أنه اشترك في اقتحام الباب الشرقي للمدينة ، وتغلب وأصحابه على جند الروم ، وأن الروم وقد لحقت بهم تلك الهزائم المتتابعـة قد عضوا أصابعهم حسرة وندماً وفي ذلك تصوير لشدة الغيظ والغضب ، وأنشد :

---

(١) ويقال لدى العناق : والعناق النجم الأوسط من بنات نعش الكبرى وهي توصف بالبعد والخفاء يقصد انها في امتناعها وبعدها على الغزاة كأنها عند العناق .

(٢) يقصد بالعتاق : عتاق الخيل .

(٣) رقاق : الرقيقة . والمقصود انها سيوف رقيقة قاطعة الحد . ثفروق : ان العرب تشبه الشيء الحقير بثفروق النواة .

(٤) البتر : المقصود بها السيوف . في الأصل وردت بهـذا الشكل ، أما في ترجمة القعقاع « وعلى الواقوص بالبتر الرقاق » وكذا في البداية والنهاية وهو الصواب .

(٥) الذواق : الإبتلاء والتجربة .

أقمنا على داريّ سليمان أشهراً
نجالد روماً قد حموا بالصوارم[1]

فضضنا بها البــاب العراقي عنوةً
فدان لنــا مستسلماً كل قائم .[2]

أقول وقــد دارت رحانا بدارهم
اقيموا لهــم جز الذري بالغلاصم[3]

فلمــا زأدنا في دمشق نحورهم
وتدمر عُضوا منها بالأباهم[4]

وفي معركة القادسية ، التي جسدت انتصار المسلمين على الفرس ، لم يتح للقعقاع – كما رأينا – أن يشترك فيها إلا في ثاني أيامهــا . ورأينا كيف أنه حمل ثلاثين حملة في هذا اليوم ، يوم أغواث ، وأنه في كل حملة كان يقتل فارسياً وأنشد يومها :

أزعجهم عمداً بها ازعاجاً   أطعن طعناً صائباً ثجاجاً

أرجو به من جنة أفواجاً

حبوتــه جياشة بالنفس   هدّارة مثل شعاع الشمس

وفي يوم أغواث فليل الفرس   أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض معشري ونفسي

---

(١) داري سليمان : يعني بها دمشق وتدمر . على أن هناك خطأ بخصوص تدمر ، فلا يعتقد بأن سليمان بناها .

(٢) فضضنا كسرنا . الباب العراقي : الباب الشرقي الذي من جهة العراق .

(٣) الغلاصم : مفرده غلضمه : وهو اللحم بين الرأس والعنق

(٤) زأده : أفزعه .

وفي ثالث أيام المعركة ، يوم عماس ، يفاخر القعقاع بقومه وبصنيعهم يوم المعركة ، وكيف أنه واجه أفيال الفرس ، ففقىء أعينها وتمكن منها فيقول :

حضّض قومي مضرجي بن يعمر
فلله قومي حين هزوا العواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا
لأهل قديس يمنعون المواليا[1]
فان كنت قاتلت العدو فللته
فإني لألقى في الحروب الدواهيا
فيولاً أراها كالبيوت مغيرة
اسمل أعياناً لها ومآقيا

وكان صوت القعقاع قد وصل لمسامع سعد في ليلة الهرير يطمئنه بأن الدائرة تدور على الفرس ، والقعقاع ينشد :

نحن قتلنا معشراً وزائدا أربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
والله ربي ، واحترزت عامدا

وفي موقعة نهاوند ، وبعد انتصار المسلمين على الفرس يتحدث القعقاع عن حسن بلائه ، وحرصه على أهل بيته ودفعه للأذى عنهم ، وكيف انه لحق بالفيرزان وقتله بعد أن فر من أرض المعركة :

---

(١) خام : نكص وجبن . قديس : اسم الحصن الذي كان يشرف منه سعد بن أبي وقاص على أرض المعركة .

رمى الله من ذم العشيرة سادراً
بداهيـــة تبيض منها المقــادم

فدع عنك لومي لا تلمني فانني
أحوط حريمي والمـدد الموائم

فنحن وردنا في نهاونـد موردا
صدرنا به ، والجمع طرق واجم

وأنشد أيضاً :

وسائل نهاوند بنا كيف وقعنـا
وقد أثخنتها في الحروب النوائب

وأنشد أيضاً :

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنـا
لشد ليـال انتجت للأعاجم

فنحن لهم وعصل سجلهـا
غداة نهاونـــد لاحدى العظائم

ملأنا شعـاباً في نهاونـد منهم
رجالاً وخيلاً أضرمت بالضرائم

وراكضهن الفيرزان على الصفا
فلم ينجهِ منـا انفساح المحـارم

لقد تعددت الأغراض التي قال فيهـا القعقاع الشعر ، وإن لم تغط كل الموضوعات ، إلا أنها تدلنا على ما يتمتع به هذا الفارس العربي من شاعرية وبلاغة وسعه خيال ..

وكانت مواضيع الفخر هي أكثر ما أنشد فيها القعقاع الشعر ، كيف لا ، والنصر كان حليفه في كل المعارك التي اشترك بها ، وأعظم الفتوحات الاسلامية وأبعدها أثراً قد أسهم فيهـا ، فحق له بعد ذلك أن يفخر ببطولته وشجاعته ، وبصنيع قومه .

فبعد انتصار المسلمين في معركة فحل ، ينشد القعقاع مفاخراً بقومه ، وبأجداده ، وآبائه الشجعان ، وكيف انـه سار على خطاهم في طريق المجد والبطولة والشجاعة ، وكيف ان قبيلته تنطلق خلف قائدهـا في زحف جرار لا آخر له .

وفي فحل كانت مأساة الروم ، فقد هزموا شر هزيمـة ، وتشتت جموعهم في مياه المستنقعات ، والمسلمون ينالون منهم بالسيوف والرماح . وأنشد يقول :

كم من أب ورثت فعـاله
جم المكارم بحره تيـار

ورث المكارم عن أبيه وجـده
فبنى بنـاءهم له استبصار

فبنيت مجدهم ومـا هدّمته
وبنى بعدي ان بقوا عمّار

ما زال منا في الحروب مروّس
ملك يغـير وخلفه جرار

بطل اللقاء إذا الثغور توكلت
عنـد الثغور مجرب مظفار

وغداه فحل قد رأوني معلماً
والخيل تنحط والبلا أطوار[1]

يفدي بلائي عندها متكلف
سلس المياسر عوده خوار

سلس المياسر ما تسامى ماقطاً
عند الرهان معير عيار[2]

ما زالت الخيل العراب تدوسهم
في حوم فحل والهبا موار[3]

حتى رمين سرانهم عن أسرهم
في ردغة ما بعدها استمرار

يوم الرداغ بعيد فحل ساعة
وخز الرماح عليهم مدرار

ولقد أبرنا في الرداغ جموعهم
طراً ونحوي تشخص الأبصار[4]

وفي الرثاء ، نجد القعقاع يهتز لمقتل أحد أصحابه في معركة القادسية والمسلمون لا يفعلون شيئاً سوى انتظار تكبيرة سعد إيذاناً ببدء القتال ،

---

(١) معلما : ذو علامة . تنحط . نحط نحيطاً : زفر . والنحيط صوت الخيل من الثقل والأعياء ،
(٢) الماقط : المضيق في الحروب .
(٣) الهبا : الغبار . أو ما يشبه الدخان .
(٤) أبر القوم : أهلكهم .

فيثور ويغضب ويحمل على الفرس ، عله يشفي غليله ويثأر لصاحبه ، ليرثيه بعد انتهاء المعركة وهو ينشد :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر
إذا ارتحـــل السفار لم يترحل
سقى الله أرضاً حلها قبر خالد
ذهـــاب غواد مدجنات تجلجل
فأقسمت لا ينفك سيفي يحسهم
فـــان زحل الأقوام لم اتزحل

وفي الوصف ، نلمس مهارة القعقاع في رسم الصورة الواضحة البليغة المعبرة ، فنقرأ شعره ويخيل لنا بأن ما يصفه ماثل أمامنا يكاد أن ينطق ...

ومن أطرف ما قاله في الوصف ، وصفه لثلاثة من فرسان المسلمين تقدموا لخطبة شقيقة زوجه . فبعد انتهاء معركة القادسية تقدم أولئك الفرسان وهم : بكير بن عبـــد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمي وسماك بن خرشة الأنصاري ، لخطبة أروى ابنة عامر الهلالية . فسألت أروى شقيقتها زوجة القعقاع أن تستشير لها زوجها وقالت لها : استشيري زوجك أيهم يراه لنا ، وحـين فعلت زوجة القعقاع ذلك ، قال لها : سأضعهم في الشعر فانظري لأختك وأنشد يقول :

إن كنت حاولت الدراهم فانكحي
سماكاً أخا الأنصار أو ابن فرقـــد

وإن كنت حاولت الطعان فيممي

بكيراً إذا ما الخيل جالت عن الردى

وكلهم في ذروة المجـــد نازل

فشأنكم أن البيان عن الغد[1] .

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري . جـ٣ ص(٥٨١) . الناشر دار المعارف بمصر.

الخاتمة

تلك هي حياة القعقاع بن عمرو ، فارس بني تميم ، تلك حياته بكل شجاعة صاحبها وبطولته وعظمته ... لقد سطر القعقاع أنصع الصفحات وخلف أطيب الذكر ، وترك أفضل الأثر ، فهو من أولئك الفرسان سيبقون مفخرة عظيمة لنا ولأمة العرب والإسلام ، التي ما بخلت على الدنيا بانجاب خير الرسل ، وأعظم الأبطال ، وأشهر القواد .

كان القعقاع من صحابة رسول الله ﷺ ، ومن أولئك الذين اعتمد عليهم الخلفاء الراشدون ، فكان من قوادهم ورسلهم ، وجنودهم الأوفياء .

وكما اكتنف الغموض تاريخ ولادة القعقاع ونشأته الأولى ، كذلك اكتنف نهاية حياته ، وتاريخ وفاته ؟

فمعركة صفين هي آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع وكان مع جند علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وانتقل بعد انتهاء المعركة إلى (الكوفة) ، ليقيم فيها معتزلاً الأحداث ، ويقضي آخر أيامه وفي

خاطره ذكرى المعارك والفتوحات والأمجاد التي سطرها بأحرف مضيئة من شجاعة وبطولة ونبل .

توفي القعقاع في السنة الأربعين للهجرة النبوية الشريفة[1] ، في تلك السنة وصلت رحلة القعقاع إلى نهايتها وغادر بعدها ركب الحيـــاة ، ليلحق بركب الآخرة ، ليلحق بالنبي الكريم ﷺ ، وخلفائه وبقية أصحابه ، فهناك حيث يحط المرء رحاله ، وقد وصل إلى نهاية المطاف ، هناك سيكون الحساب والثواب ...

ولا بـد أن فارسنا العظيم قد حمل ذخراً كافياً ومؤونة صالحة ، وأعمالاً جليلة ، ليثاب عليها خير ثواب ، ويظفر بذلك النعيم الذي أعد لأولئك الذين فازوا برضوان الله ورسوله الكريم ﷺ .

---

(١) منجد الأعلام . ص «٥٥٤» الناشر : دار المشرق بيروت ١٩٧٣ .

فهرس



المراجع

١ – احياء علوم الدين للامام الغزالي . الناشر دار احياء الكتب العربية .

٢ – الإصابة في تميز الصحابـــة . لابن حجر العسقلاني . الناشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٣ – تاريخ الخلفاء . للسيوطي . الناشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٤ – تاريخ الرسل والملوك : للطبري . الناشر دار المعارف بمصر .

٥ – تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق . مجمع اللغة العربية حالياً .

٦ – تهذيب سيرة ابن هشام . عبد السلام هارون . الناشر مكتبة المعارف بدمشق .

٧ – سيف الله . خالد بن الوليد . الجنرال أ . أكرم . النـــاشر مؤسسة الرسالة بيروت .

٨ – عبقرية خالد . عباس محمود العقاد . الناشر دار المعارف بمصر .

٩ – عبقرية الصديق . عباس محمود العقاد . الناشر دار المعارف بمصر .

١٠ – عبقرية عمر . عباس محمود العقاد . الناشر دار المعارف بمصر .

١١ – شعر الفتوح الإسلامية . في صدر الإسلام . النعمان عبد المتعال القاضي . الناشر الدار القومية للنشر .

١٢ – فتوح البلدان . للبلاذري .

١٣ – الطريق إلى المدائن . احمد عادل كمال . الناشر دار النفائس بيروت .

١٤ – الفتنة الكبرى . عثمان . طه حسين . الناشر دار المعارف بمصر .

١٥ – الفتنة الكبرى . علي وبنوه . طه حسين » » » »

١٦ – القادسية . أحمد عادل كمال . الناشر دار النفائس بيروت .

١٧ – الكامل في التاريخ . لابن الأثير . الناشر دار صادر بيروت .

١٨ – معجم البلدان ياقوت الحموي . الناشر دار صادر بيروت .

الطبعـــة الاولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٤١٦٩٢/٢٩٥٥٠١ ص‌ب ٧٤٦٠ برقياً بيوشران

